العثمانيون
فى الميزان الإسلامى والعربى

بحوث ودراسات فى تاريخ الدولة العثمانية

اعداد

د . عبد المنعم ابراهيم الدسوقى الجميعى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية فرع جامعة القاهرة بالفيوم

رقم الايداع: ٨٥٩٧/٩٥
الترقيم الدولي: I.S.B.N
977-5399-06-8

تمهيد

تختلف الروايات حول أصل الأتـراك العثمـانيين ، وإن كـان العديـد مـن المؤرخيـن يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل "غز الخزر" وهى قبيلة "قابى خان[١]" التى كان يتولى أمورها سليمان شاه وكان موطنها الأصلى أواسط آسيا ثم نزحت تحت الضغط المغولى صوب آسيا الصغرى والأناضول فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى . وخلال ذلك توفى "سليمان شاه" ، وتولى ادارة هذه القبيلة ابنه "أرطغرل" . وفى أثناء تنقل هذه القبيلة بحثاعن المأوى ومصادر العيش شاهدت جيشين يقتتلان ، وأدركت ان أحد هذين الجيشين ليس ندا للآخر فانضمت القبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذى كاد يلقى هزيمة مروعة – من جانب باب النجدة – وكان انضمامها إليه سببا فى انتصاره . وبعد المعركة تبين أن هذه القبيلة تدخلت لنصرة بنى جلدتها وهم الأتـراك السـلاجقة الذيـن كـانوا يحـاربون تحت قيادة سلطانهم علاء الدين ، وأنهم كانوا يحاربون إحدى الفرق المغولية التى أوكل إليها استكمال فتح آسيا الصغرى[٢] . ونتيجة لذلك استجاب السلطان علاء الدين لطلب "أرطغرل" بأن يمنح قبيلته مكانا تستطيع العيش والاستقرار فيه[٣] ، فأمر باقطاعه عدة أقاليم ومدنا ، وصار يعتمد عليه فى حروبه . وكان يقطعه أراضى جديدة عقب كل انتصار يتمكن من تحقيقه ويمنحه أموالا جزيلة . يضاف إلى ذلك أنه لقب قبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائما فى مقدمة جيوشه . وظل "أرطغرل" فى خدمة السلطان علاء الدين إلى أن توفى فى عام ٦٨٧هـ الموافق ١٢٨٨م فعين علاء الدين أكبر أولاد أرطغرل مكانه وهو عثمان مؤسس الدولة العثمانية[٤] .

---

١ – عبد السلام فهمى : السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨١ ص ١١ .

٢ – عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ص ٣٣-٣٤ .

٣- Edward , S. Creasy : History of the ottoman Turks , Beirut, 1968 , P. 2-4 .

٤- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ/١٩٨١م ص ١١٥-١١٦ .

وقد نهج عثمان نهج والده فى الجهاد حيث استولى على قلعة "قوجه حصار" التى كانت تابعة للروم وذلك فى عام ١٢٨٩م ، وقد كافأه السلطان علاء الدين على ذلك بأن سمح له بضرب "السكة" باسمه ، وأمر بأن يذكر اسم عثمان بجانب اسمه فى خطبة الجمعة ، ومنحه كل الأراضى التى تم له فتحها ، وكذلك الأراضى التى سيتمكن من فتحها بعد ذلك مما تسبب فى ذيوع صيت عثمان . ولعل السبب الذى دفع السلطان علاء الدين إلى ذلك هو أنه أراد أن يجعل من عثمان وقبيلته قوة للدولة السلجوقية التى بدأ الضعف يتسرب إليها .

وبعد سقوط دولة سلاجقة الروم على يد المغول فى عام ٦٩٩هـ ، ووفاة السلطان علاء الدين انفتح المجال أمام "عثمان بن أرطغرل" الذى استقل بما تحت يده من بلاد ، واتخذ من مدينة "ينى شهر" عاصمة له ودعا نفسه "باد شاه عثمان[1]" أى سلطان العثمانيين.

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه ، واعتنق العثمانيون فى عهده الإسلام ، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية ، وبعد وفاة عثمان فى عام ١٣٢٦م واصل ابنه أورخان، ومن جاء بعده السير على سياسته ، واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا ، ومرت عليهم مظاهر عديدة من الحضارات ، وأصبحت امبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أقاليمها وولاياتها فى آسيا ، وأوربا وافريقية ، وأصبحت أكبر دولة إسلامية يشهدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المجر فى أوربا وتشمل أراضيها كلا من بلاد اليونان والبوسنة والهرسك والجبل الأسود وألبانيا وبلغاريا والمجر والبغدان ، وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغستان وما يلى ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمنيا والأناضول وما بين النهرين وبلاد العرب وسورية ومصر والسودان وبرقة وطرابلس وتونس .

وفى تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلك فى مجال الحرب أو فى مجال السلم . لقد توالى على عرش الدولة العثمانية ستة وثلاثون سلطانا كان منهم

---

١ - سالم الرشيدى : محمد الفاتح ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م ص ٢١ - ٢٢ .

من لا يأتي الدهر بمثلهم إلا على فترات من الزمن ، وكان منهم بين بين ، كما كـان منهـم من لا يصلح مطلقا لتولى هذا المنصب الخطير الذى وصل إليـه عـن طريـق الوراثـة ممـا ساعد على هدم هذه الدولة ودك أركانها .

وسيلاحظ القارئ لهذا الكتاب انـه يحـوى العديـد مـن البحـوث والدراسـات العلميـة لبعض القضايا والمشـكلات التـى لازمـت تـاريخ الدولـة العثمانيـة ليـس خـلال فـترة قوتهـا فحسب بل وخلال فترات ضعفها أيضا .

فقد شملت هذه الدراسة موضوعات متعددة بدأت بفتح القسطنطينية علـى يـد محمـد الثانى فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وتطرقت إلى موقف الدولة العثمانية من سقوط الأندلس .

وإلى الانكشارية ودورهم فى الفتوحات التى قامت بها الدولة حتى تم القضاء عليهم بعد أن دب الضعف والفساد فى نظامهم . كما تطرقـت إلـى الفتـح العثمـانى للعـالم العربـى والحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية ، وتناولت السلطان عبد الحميـد الثـانى ودعوتـه إلى فكرة الجامعة الإسلامية حتى تم اسقاطه واستيلاء جماعة الاتحاد والترقى علـى الحكـم ثم قيام الحرب العالمية الأولى .

وتأتى البحوث إلى نهايتها مع دراسـة نقديـة بعنـوان "الدولـة العثمانيـة مـا لهـا ومـا عليها" أوضحنا فيها المناقب والمآخذ التى أخذت على العثمانيين بشـكل يتمشـى مـع منهـاج البحث التاريخى .

والله ولـــى التـوفـيـــق ..

أ. د. عبد المنعم الجميعى
القاهرة – مدينة المهندسين
أغسطس ١٩٩٥

الموضوع الأول

السلطان محمد الثانى وفتح القسطنطينية

تسابق المسلمون إلى فتح القسطنطينية منذ أن فتح العرب بلاد الشام[1] ، وذلك مصداقا للحديث الشريف "لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش[2]" ولكن كل محاولاتهم لم يتحقق لها النجاح حتى قيض الله الأمر للسلطان العثمانى محمد الثانى فتمكن من فتحها ، وفيما يلى نعرض لهذا السلطان ، ولذلك الفتح .

أولا : السلطان محمد الثانى : -

ولد السلطان محمد الثانى فى السادس والعشرين من شهر رجب ٨٣٣هـ الموافق للعشرين من أبريل ١٤٢٩م ، وقضى أيام طفولته الأولى فى "أدرنه" تحت رعاية والده السلطان مراد الثانى الذى اهتم بتكوينه عسكريا فعلمه فنون الفروسية والحرب ، كما اهتم بتلقينه مبادىء الدين الإسلامى حتى يزيل تأثير أمه النصرانية عليه[3] .

وقد تولى محمد الثانى السلطة فى عام ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م بعد تنازل والده عنها ، ومبايعة أهل الحل والعقد له فأصبح بذلك السلطان السابع الذى يعتلى عرش السلطنة العثمانية[4] ، وكان عمره وقتئذ لا يزيد عن الثانية والعشرين[5] .

وقد تميز محمد الثانى بكفاءته ، وشجاعته ، وذكائه ، وشدة حرصه على الثقافة ، وحبه للعلوم والفنون ، ومما يذكر عنه أنه كان يجيد عددا من اللغات منها التركية لغته

---

١ – لتفاصيل ذلك انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجبل ، ١٣٩٧هـ/١٩٩٧م ص ٦١ .

٢ – ورد فى مسند أحمد ، وفى مستدرك الحاكم (حديث صحيح) .

٣ – د. عبد السلام فهمى : السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم ، دمشق ، دار القلم ، ١٩٧٥م ص ٣١ .

٤ – محمد فريد : المرجع السابق ص٥٨ .

٥ – ابراهيم حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، القاهرة ، ١٩٠٥م ص ٦٣ .

الأسبانية والعربية والفارسية والعبرانية ، واليونانية ، واللاتينية ، واتصف أيضا بالموهبة الشعرية وبأنه كان نصيرا للعلوم ، هذا إلى جانب قدرته العسكرية والميدانية[1] فقد خاض محمد الثانى العديد من المعارك والحروب ضد أعداء الدولة ، واستولى على الكثير من البلدان ، وحاصر العديد من المدن ، وكان حلمه الذى يراوده دائما هو فتح القسطنطينية[2]، ولعل السبب المباشر والرئيسى الذى دفعه إلى الإسراع فى ذلك هو أن الامبراطور البيزنطى "قسطنطين باليولوجس" كان قد انتهز فرصة وفاة والد محمد الثانى وقام بأعمال استفزازية رشح من خلالها أحد أمراء آل عثمان لكى يتولى عرش أدرنة . ونتيجة لذلك شيد محمد الثانى قلعة كبيرة سميت "روميلى حصار" لمحاصرة القسطنطينية، كما أخذ فى فتح العديد من البلدان المجاورة للقسطنطينية ليجعل جميع أراضى سلطنته متصلة ببعضها ، لا يتخللها أى حاجز ، هذا إلى جانب قيامه بتحصين مضيق البسفور لمنع أى امدادات تأتى من مملكة طرابزون لمساعدة البيزنطيين على فك الحصار[3] .

ثانيا : فتح القسطنطينية ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م :

جذبت القسطنطينية أنظار العالم من كل حدب وصوب نظرا لموقعها الجغرافى الهام الذى كانت تشغله والذى يربط آسيا بأوربا عن طريق مضيق البسفور الذى يصل البحر المتوسط بالبحر الاسود عن طريق بحر مرمرة ، ويشكل مضيق البسفور أهمية كبيرة حيث إن أقرب مسافة فيه بين الشاطئين ألف متر فقط .

قال نابليون بونابرت عن مدينة القسطنطينية "لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها[4]" .

وقال مؤلف كتاب دليل الأستانة "إن المسافر إلى تلك العاصمة بحرا لابد له من المرور فى أحد البوغازين : بوغاز القلعة السلطانية الذى يقال له الدردنيل ، وبوغاز الأستانة الذى يقال له البسفور ، والأستانة قائمة على مفرق البرين أوربا وآسيا ، ويفصل بينهما من الجنوب بوغاز الدردنيل ومن الشمال البسفور الجميل .. وبين البوغازين بحر صغير هو بحر مرمرة ، وهذا البحر يتصل شمالا بالبحر الأسود ... وجنوبا ببحر الأرخبيل - وهو جزء من البحر الأبيض المتوسط[5] .

---

١ - أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى ، بيروت ، دار الشروق ، ص ٦٥ .

٢ - عبد العزيز نوار : الشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٣م ص ٤٨ .

٣ - محمد فريد : المرجع السابق ص ٥٩ .

٤ - على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، دمشق ، المكتب الإسلامى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٥ - م . شكرى : دليل الأستانة ، الاسكندرية ، ١٩٠٩م ص ٣-٤ .

وتميزت القسطنطينية أيضا بحصانة أسوارها العديدة إذ إن هناك سورين من أسوارها طولهما أربعة أميال بين شواطىء بحر مرمرة والقرن الذهبى ، أما السور الداخلى فارتفاعه يبلغ خمسة وعشرين قدما ، ويوجد بين السورين الداخلى والخارجى فضاء ترابى يصل عرضه إلى ستين قدما ويوجد بالسور الخارجى عدة أبواب منها باب أدرنة وباب المدفع (طوب قبو) والباب العسكرى[1].

ولقد مر فتح القسطنطينية بعدة مراحل هى : -

أ - مرحلة الحصار :

وقد بدأ السلطان محمد الفاتح التأهب والاستعداد التام لفتح القسطنطينية قبل عام كامل من بداية حصاره لها حيث قام بمحاصرة أبواب المدينة الثلاثة الكبرى[2] . وعقد محمد الفاتح عدة اتفاقيات مع حكام الدول المجاورة له ، ثم قام ببناء قلعة هامة على شواطىء البسفور فى يابس أوربا وأطلق على هذه القلعة اسم "روم إيلى حصار" وكان موقعها على مسافة تقدر بسبعة كيلو مترات قرب القسطنطينية . وقصد الفاتح من بناء هذه القلعة رد أى محاولة لوصول الامدادات للبيزنطيين ، وقد شارك الفاتح عمال البناء فى تشييد تلك القلعة التى انتهى العمل بها فى شهر شعبان من عام ٨٥٦هـ الموافق ١٤٥٢م ، وكانت هذه القلعة مثلثة الشكل ، وفى كل زاوية منها برج كبير للمراقبة ، كما نصبت عليها المجانيق، والمدافع الضخمة لمنع السفن المعادية من المرور إلا بعد تفتيش دقيق ودفع الضريبة المقررة[3] . ونتيجة لذلك بدأ الامبراطور قسطنطين الحادى عشر يشعر بالخطر المحدق، وأن زوال عاصمته فى طريقه إلى التحقيق ، فحاول تدارك الأمر بأن أرسل إلى محمد الفاتح بموافقته على دفع الجزية ، وبأن يتزوج من والدته[4] ، ولكن السلطان العثمانى رفض كل هذه المساومات وآثر عليها فتح المدينة ، مما اضطر قسطنطين إلى طلب المعاونة من ملوك وحكام أوربا لرد الخطر المحدق على بلاده[5] .

١- عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٨٦-٨٨ .

٢- سيد رضوان على : السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامى فى أوربا الشرقية ، جدة ، الدار السعودية للنشر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٢٤ .

٣- عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٧٣-٧٧ .

٤- أرملة مراد الثانى التى ظلت على نصرانيتها ، وكانت آنذاك تناهز الخمسين من عمرها .

٥- على حسون : المرجع السابق ص ٣٣-٣٤ .

ب – مرحلة الاستعدادات :

طاف المخترع المجرى المدعو "أوربـان" أشـهر صـانع للمدافـع فـى زمانـه ببعض بلدان أوربا يعرض على حكامها وملوكها اختراعاتـه(١) فلـم يلتفت إليـه أحـد بمـا فـى ذلـك الامبراطور البيزنطى قسطنطين المحاط بالخطر الإسلامى .

ولما عرض أوربان اختراعاته على السلطان محمد الفاتح مده بالمـال ، وقبل تنفيذ اختراعه ، ووفر له كل متطلباته فقام أوربان بتصميم مدافع ضخمة كان من أبرزهـا مدفـع كبير يزن ٧٠٠ طن ، وتزن قذيفته ١٢ ألف رطل ، ويجره ١٠٠ ثور ، و١٠٠ رجل مـن الأقوياء(٢) ليتمكنوا من سحبه ، وكان مدى مرماه أكثر مـن ميـل(٣) ، وكـان يـلزم لـه نحـو ساعتين لسحبه(٤) . وقد قطع هذا المدفع المسافة بين أدرنة والقسطنطينية فى شهرين.

وقد أسمت المصـادر الافرنجيـة هذا المدفـع باسـم المدفـع السـلطانى أو "المحمديـة" "Mohametta"(٥) . يضـاف إلـى ذلك أن محمـد الفـاتح تمكـن مـن بنـاء مجموعـة مـن السفن، ووضعها فى بحر مرمرة لتكون حاجزا لسد مضيق الدردنيل ، ووصـل عددهـا مـا بيـن ٢٥٠–٤٠٠ سفينة . وأمـام هذه الاستعدادات الواضحـة مـن قبل العثمـانيين اضطـر قسطنطين إلى الاستنجاد بملوك أوربا وحكامها وكان من بين الذين لبوا طلبه أهالى جنـوة، فأرسلوا إليه أسطولا بحريا بقيادة جسـتنيانى(٦) ، وقد كلفـه الامبراطور قسطنطين بمهمـة الدفاع عن الأبواب الهامة والنقاط الخطرة .

وخلال ذلك الوقت تمكن محمد الفاتح من عقد الصلح مع أمراء المنـاطق المجـاورة له ، وظل حوالى ثمانية أشهر كاملة يجمع المواد والمؤن والرجـال ويدربهم ، واستعان بمجموعـة مـن الصنـاع ليصنعـوا لـه الأسلحة والمدافـع ثـم بـدأ بعد ذلك فـى محاصرتـه للقسطنطينية بواسطة مائة وأربعين ألف مقاتل(٧) .

١– سالم الرشيدى : محمد الفاتح ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩م ص ٩٠ .

٢– على حسون : المرجع السابق ص ٣٤ ، وذكر لوثروب ستودارد أن العدد كان ٧٠٠ رجلا . انظر حاضر العالم الإسلامى – ترجمة عجاج نويهض – المجلد الأول جـ٢ ، البابى الحلبى ١٣٥٢هـ ص٢٢٠.

٣– محمد فريد : المرجع السابق ص ٥٩ .

٤– لوثروب : المرجع السابق جـ٢ ص ٢٢٠ .

٥– سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٢٤ .

٦– محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

٧– ول ديورانت : قصة الحضارة ، جـ٢٣ – ترجمة عبد الحميد يونس ، القاهرة ، الادارة الثقافية للجامعة العربية ص ٣٦ . وقيل إن عدد المحاصرين بلغ ثلاثمائة ألف مقاتل .
انظر لوثروب ستودارد : المرجع السابق حـ٢ ص ٢٢٠ .

جـ - مرحلة بدء القتال :

بدأ زحف الجيش الإسلامى صوب أسوار القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح الذى كان فى طليعة جنوده ، وقد قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام :

١ - **الميمنة** : وكانت مؤلفة من جنود الأناضول بقيادة إسحاق باشا ومحمود بك ، وكان مركز عملياتها يمتد من الساحل الجنوبى عند بحيرة مرمرة حتى باب "طوب قبو" .

٢ - **الميسرة** : يتألف مجموع جنودها من جنود أوربا والمتطوعين وغير النظاميين ويقوده "قره جه باشا" ويكون امتداد هؤلاء الجنود عند سور القسطنطينية الشمالى فى ميناء القرن الذهبى حتى "باب أدرنة" .

٣ - **القلب** : وهو مؤلف من جنود الإنكشارية إضافة إلى الفرق الخاصة التى اختارها محمد الفاتح وهى فرق انتحارية ، وكان يقود هذا الجزء من الجيش محمد الفاتح بنفسه ، ومكان هؤلاء الجنود أمام الجزء الأوسط من السور ، ويمتد من باب طوب قبو حتى يصل "باب أدرنة[1]" . وتمركز أفراد هذا الجيش أمام بوابات القسطنطينية . هذا إلى جانب قيام الأسطول العثمانى بتطهير بحر مرمرة من السفن البيزنطية ، واحتلاله لبعض الجزر .

وبعد كل ذلك بدأت المدافع العثمانية تدك بقذائفها أسوار القسطنطينية حتى أحدثت فيها ثغرة تمكن البيزنطيون من سدها . وقد حاول الأسطول العثمانى محاولات جادة لتحطيم السلسلة الحديدية التى تقع فى مدخل القرن الذهبى ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل ، إضافة إلى فشله فى التصدى لعدد من السفن التى أرسلها بابا روما محملة بالعتاد الحربى والمؤن حيث نشبت معركة بحرية بين الطرفين كانت الهزيمة فيها فى جانب العثمانيين[2] . وأمام هذا الفشل لم تلن عزيمة المسلمين عن السعى إلى تحقيق النصر ، وكان ذلك الفشل دافعا قويا لهم للتمسك بالعزيمة ، ومواصلة العمل ، وهذا كان من أبرز الصفات التى اتصف بها العثمانيون[3] ونتيجة لذلك فكر السلطان محمد الفاتح فى طريقة أخرى يدخل بها سفنه إلى داخل القرن الذهبى دون أن تعوقها السلسلة الضخمة الموجودة هناك وذلك عن طريق نقل سفنه برا بمقدار ثلاثة أميال من بحر مرمرة حتى تصل مياه القرن الذهبى[4] عبر برزخ ترابى خلف مستعمرة "غلطة" فأمر جنوده بتركيب بعض العجلات الصغيرة فى سبعين من سفنه ، كما أمرهم بتعبيد الأرض وفرشها بألواح خشبية

١- عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٨٨ .

٢- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٢٩ ، ومحمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

٣- على حسون : المرجع السابق ص ٣٦ .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

مدهونة بالزيت والشحم[1] ، ثم زلجت السفن على طول هذا الطريق وفوق تلك الألواح ، واستطاع خلال ليلة واحدة أن يدخل سبعين سفينة إلى تلك المياه ، وخلال ذلك كانت المدفعية العثمانية تطلق نيرانها على مدينة القسطنطينية لحماية تنفيذ تلك الفكرة[2] . وخلال الصباح فوجيء البيزنطيون بالأمر ، وتأكدوا من نجاح العثمانيين فى محاصرتهم من كل جانب ، ومع ذلك فقد ظلوا فى دفاعهم المتواصل عن مدينتهم ، فقاد الامبراطور قسطنطين مجموعة من المقاتلين ، وأخذوا فى ترميم تحصينات مدينتهم المتهدمة ، وإعداد كافة وسائل الدفاع الممكنة عنها . وخلال ذلك أرسل السلطان محمد الفاتح إلى الامبراطور قسطنطين يدعوه إلى التسليم حقنا للدماء على أن يتعهد باعطاء الحرية الدينية للأهالى ، ولكن الامبراطور رفض ذلك وأصر على الدفاع عن مدينته حتى الموت[3] مما جعل محمد الفاتح يضاعف من نيران مدافعه ، ويأمر باستمرار الهجوم البحرى والبرى على المدينة المحصنة ، وحفر الأنفاق من تحت الأسوار ، كما أمر محمد الفاتح ببناء قلعة خشبية كبيرة جاوزت فى ارتفاعها ارتفاع أسوار مدينة القسطنطينية ، وكانت من ثلاث طبقات كسيت بالجلود المتينة المبللة حتى لا تحرقها النار .

واستمرت مدافع العثمانيين فى إطلاق قذائفها لمدة خمسين يوما فى حين كان البيزنطيون وعلى رأسهم الامبراطور قسطنطين ، وقائد القوات جستنيانى لا ينامون الليل ويواصلون العمل من أجل إصلاح كل ما يتهدم من الأسوار ، واعادة بنائه .

د – مرحلة الهجوم :

قبل بدء الهجوم عقد محمد الفاتح مجلسا حربيا فى خيمته حضره وزراؤه ، وكبار رجال جيشه ، والعلماء والمشايخ وطلب منهم الرأى فى استمرار الحصار من عدمه ، فما كان منهم إلا أن قالوا "ما أتينا هنا إلا لنموت ولا نرجع[4]" وعندئذ أصدر الفاتح أوامره إلى جنوده بالصيام لتطهير نفوسهم وتزكيتها ، وأن يطلبوا من الله العون ، وتحقيق النصر وفى تلك الليلة علت صيحات التكبير والتهليل ، وقرعت الطبول[5] وأنشدت الأناشيد الحماسية ، ثم تلا الشيوخ الآيات والأحاديث التى تحض على الجهاد وترغب فيه، وتفقد الفاتح قواته ، كما تفقد أسوار المدينة من الخارج ، وبدأ يعد لكل شيء عدته ،

١- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٢٩-٣٠ .

٢- على حسون : المرجع السابق ص ٣٤ .

٣- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

٤- سالم الرشيدى : المرجع السابق ص ١٢٠-١٢١ .

٥- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

ثم عاد إلى خيمته ، ودعا كبار رجال جيشه وخاطبهم قائلا "إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزته ، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردا فردا أن الظفر العظيم الذى سوف نحرزه سيزيد الإسلام قدرا وشرفا" ثم أمرهم أخيرا أن يتمسكوا بتعاليم الشريعة الإسلامية وألا يخرجوا عليها(١) فلا يمسوا الضعفاء بأذى ويتقوا الله فى أعمالهم .

وفى صبيحة الثلاثاء ٢٩ من مايو ١٤٥٣م(٢) (٨٥٧ هـ) بدأ الهجوم الفعلى على القسطنطينية(٣) ، ودوت الهتافات العالية تردد التهليل والتكبير . ثم بدأ الجنود يتقدمون بسرعة نحو الأسوار ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأنزل فيهم المدافعون عن المدينة خسائر كبيرة فى الأرواح والعتاد ، ومع ذلك فقد حققوا شيئا هاما كان يهدف إليه السلطان محمد الفاتح وهو إنهاك المدافعين واستنفاد ذخيرتهم .

ثم تبع ذلك الهجوم هجوم آخر قامت به مجموعة من قوات "العاصنة" ولكنهم أخفقوا فى مهمتهم واضطروا إلى الانسحاب ، ثم جاء الهجوم الثالث وقد قام به مجموعة كبيرة من حرس السلطان ورماته إضافة إلى ١٢ ألف جندى من الإنكشارية(٤) ، وفى أثناء هذه الهجمات الثلاثة كانت المدفعية العثمانية تطلق قذائفها باستمرار ، ودون توقف من البر والبحر . وخلال ذلك استطاع أول رجل من جنود الفاتح اعتلاء السور ، وهو الجندى الانكشارى "حسن طولو" ومع أنه سقط من على السور إثر ضربة بحجر كبير ، فإنه مهد لرفقائه الآخرين الطريق حيث استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى الأطراف الداخلية من السور فى الوقت الذى كانت فيه مجموعة كبيرة من الجند العثمانى بقيادة محمد الفاتح تتقدم لدخول المدينة من جهة باب السيرك الذى أهمله البيزنطيون ، وقد فوجئ بهم البيزنطيون وعلت صيحاتهم تردد كلمة "Polis Healo He" ومعناها احتلت المدينة(٥). وبدأت أعلام العثمانيين ترتفع فوق الأبراج من جهة "باب أدرنة" ومن جهة السور الذى يطل على مياه القرن الذهبى ، وامتد القتال العنيف داخل شوارع المدينة ، وسقط قسطنطين آخر الأباطرة البيزنطيين متخبطا فى جراحه ، وقبله أصيب جستنيانى

١- حسون : المرجع السابق ص ٣٩ .

٢- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٣٢ .

٣- Edward Creasy : History of the Ottoman , P. 83 .

٤- برنارد لويس : استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية – ترجمة سيد رضوان على – جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص ٢١ .

٥- برنارد لويس : المرجع السابق ص ٢٢ .

قائد القوات ، وهرب إلى إحدى الجزر البعيدة عن المدينة[1] .

وبعد ساعات من إحكام سيطرة العثمانيين على الموقف دخل السلطان محمد الفاتح إلى المدينة ، وهو راكب جواده وحوله حرس الانكشارية ، وكبار رجال دولته ، وتوجه قاصدا كنيسة أيا صوفيا ، ثم نزل من على جواده ، وسجد لله شكرا على هذا النصر الكبير ، ودعا بالرحمة للشهداء من جنوده ، وبعد ذلك دخل الكنيسة وأمر بتحويلها لتكون الجامع الرئيسى بالمدينة[2] ، ودعا أحد الأئمة ليصعد المنبر ويجهر بالعقيدة الإسلامية ، فصعد الامام معلنا "أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله[3]" وبعد ذلك صليت أول جمعة فيه .

كما أمر محمد الفاتح باقامة العديد من المنشآت الإسلامية فى المدينة فتأسس الجامع المعروف باسم جامع محمد الفاتح ، وأيضا الجامع المشيد قرب ضريح أبى أيوب الأنصارى وإلى جانب ذلك أعلن محمد الفاتح عدم معارضته فى إقامة الشعائر المسيحية، وضمان حرية النصارى الدينية ، والمحافظة على أملاكهم[4] .

وهكذا ارتفعت رايات الإسلام خفاقة على القسطنطينية وتحققت معجزة نبى الإسلام، وسطر التاريخ لمحمد الفاتح صفحات المجد والبطولة ، فأصبح أول سلطان عثمانى يطلق عليه أهل أوربا لقب السيد العظيم ، كما أصبح مجرد سماع اسمه يثير الرعب والهلع فى نفوس أعدائه .

وبعد أن وطد محمد الفاتح مركزه بفتحه للقسطنطينية أخذ يهتم بالتعمير والبناء ، ثم عاد إلى "أدرنة" فاستقبله الناس استقبالا حافلا ، وبعدها ذهب إلى "بروسه" للاستجمام والراحة استعدادا لمواصلة فتوحاته فى أوربا .

وقد استطاع محمد الفاتح أن يضم إليه بلاد الصرب واليونان والافلاق والجزر الرئيسية فى الأرخبيل وبهذا وطد سيادته فى أوربا حتى أن خلفاءه لم يفتحوا بعده بلادا مثلما تحقق على يديه[5] .

١- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٣٤ .

٢- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٣- برنارد لويس : المرجع السابق ص ٢٣ .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٥- سالم الرشيدى : المرجع السابق ص ١٨٥-١٨٦ .

ونتيجة لذلك لم يكن أمام بعض المؤرخين إلا أن يتخذوا من فتح القسطنطينية في ٢٩ مايو ١٤٥٣م بداية للتاريخ الحديث ، ونقله واضحه للعالم من العصور وأنظمتها الإقطاعية إلى العصور الحديثة .

وقد جعل الفاتح من القسطنطينية عاصمة لدولته بعد أن غير اسمها إلى اسلامبول أى تخت الإسلام أو مدينة الإسلام[١] . واستمر الفاتح يحقق الانتصارات للإسلام والمسلمين حتى توفى فى ٣ مايو ١٤٨١م[٢] ، فابتهجت أوربا بوفاته وأقامت الاحتفالات ونصبت الزينات بهذه المناسبة[٣] ، فلقد استطاع أن يهز عروش أوربا ، ونجح فى تحويل الكثير من سكان جنوب شرق أوربا إلى الإسلام ، وجعل معظم الطرق التجارية البحرية الهامة خاضعة لسيطرة العثمانيين[٤] .

١- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٢- Edward Creasy : OP. Cit , P. 92 .

٣- عبد السلام فهمى : المرجع السابق ص ٣١ .

٤- ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٨ .

الموضوع الثاني

موقف الدولة العثمانية والقوى الإسلامية الأخرى من سقوط الأندلس

فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى استمرت قواعد المسلمين فى الأندلس تتساقط تباعا فى يد أسبانيا النصرانية ، ولم يبق منها سوى مملكة غرناطة الصغيرة بمدنها وثغورها القلائل .

وبعد أن اتحدت قشتالة وأرجوان على يدى فرديناند وايزابيلا اعتزمت أسبانيا النصرانية توجيه ضربتها الحاسمة لما تبقى للإسلام فى الأندلس فتدفقت جيوشها على مملكة غرناطة التى كانت رغم صغرها وضعفها تمثل صولة الإسلام فى أسبانيا ونواة التحرك الإسلامى تجاه أوربا والذى بدأت طلائعه فى الشرق على يد الأتراك العثمانيين بعد فتحهم للقسطنطينية . وقد استغلت أسبانيا النصرانية فى ذلك الخلاف الداخلى الذى دب بين الأسر الحاكمة فى غرناطة واضطرام المنافسة على السلطة ، وغلبة نفوذ النساء على الحكام ، وانتشار الخطوب والفتن والحروب الأهلية داخلها[1] .

وفى تلك الآونة العصيبة اتجهت أبصار أمراء وأهل الأندلس إلى القوى الإسلامية المعاصرة لهم فى المشرق والمغرب معا يناشدونها النجدة والغوث إزاء الخطر المحدق بهم وكانت رسائلهم ووفودهم تصل تباعا إلى الآستانة والقاهرة ومراكش خاصة وأن هذه القوى الإسلامية كان لها مكانتها واسهاماتها فى خدمة الإسلام والمسلمين فالدولة العثمانية حقق الله على يديها فتح القسطنطينية ، وراحت قواتها تتابع فتوحاتها فى أوربا وآسيا وتنفذ بلواء الإسلام إلى أمم النصرانية فأخضعت ممالك الأفلاق والصرب والبوسنة والهرسك وألبانيا وغيرها ، وكانت بمثابة القوى القادرة القاهرة التى تفتح الممالك المسيحية باسم الإسلام ، وبوسعها أن تدفع الغائلة عن المسلمين فى أى مكان مما جعل أعناق أهل الأندلس تشرئب إليها لانقاذهم من محنتهم وليحتفظوا بالأندلس للمسلمين .

١- للتفاصيل انظر محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين جـ٤ ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ص ١٦٢ وما بعدها .

وكانت هناك دولة المماليك الشراكسة فى مصر والشام والجزيرة العربية الذين تحقق على أيديهم هزيمة المغول واجلاء الصليبيين من آخر معاقلهم بالشام ، وكانت أوربا تخشاهم ، وتعمل لسلاطينهم ألف حساب خاصة وأنهم كانوا يتحكمون فى البقاع النصرانية المقدسة وبين رعاياهم العديد من النصارى . وكان هناك حكام المغرب الأقصى الذين كانوا يتمسكون بفكرة الجهاد ، وبأهمية المحافظة على ما تبقى للمسلمين من ممتلكات فى الأندلس ، ويرغبون فى وقف أطماع الممالك المسيحية النامية فى شبه جزيرة إيبريا ، وقد تمثل ذلك فى الحملات المتتالية للمرابطين والموحدين ثم المرينيين والتى كان من أهمها قيام المرابطين بمساندة ملوك الطوائف ضد جيوش أسبانيا النصرانية فى موقعة الزلاقة ١٠٨٦م وقيام السلطان المغربى يعقوب بن عبد الحق المرينى بارسال جيش جرار فى عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م لمساندة أهل الأندلس فى الانتصار على نصارى أسبانيا .

ونظرا لأن أهل غرناطة وحكامها شعروا بعدم قدرتهم وحدهم على الثبات أمام أعدائهم فقد استغاثوا بهذه القوى ، وطلبوا منها العمل على انقاذهم من الخطر المحدق بهم والاحتفاظ بغرناطة للمسلمين ولكن ذلك لم يتحقق مما يدفعنا إلى البحث عن الأسباب التى أدت إلى تقاعس هذه القوى عن نصرة أخوانهم فى الدين والملة على الرغم من أن صدى الأحداث المؤسفة التى وقعت للمسلمين فى الأندلس كانت تملأ بلاط حكام القاهرة والآستانة وغيرها ، وتثير فيهم الاهتمام والعطف[1] .

وحتى تتضح لنا الأمور سنعرض لأحوال كل قوة من هذه القوى على حدة ، والأسباب التى باعدت بينها وبين مساندة أهل الأندلس .

أولا : الدولة العثمانية :

كان من الطبيعى أن يتجه أهل الأندلس إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ينشدون مساعدتها عسكريا خلال صراعهم من أجل البقاء والمحافظة على الدين والملة فأرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م سفارة إلى استانبول ملفتين نظر السلطان محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس طالبين تدخله لانقاذهم[2] ولكنه كان مشغولا عنهم ولم يقدم لهم النجدة . وتكررت مناشدتهم بعد وفاة هذا السلطان لابنه

١- عنان:مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٣٥٠هـ/١٩٣١م ص١٣٨ .

٢- عبد الجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى . المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد الثالث يناير ١٩٧٥ ص ٣٨ .

بايزيد فأرسل أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة رسولا إليه يلتمس منه النجدة لانقاذ بلاده ، ونصرته ضد ملوك النصارى[١] كما أرسل إليه أحد شعراء غرناطة بقصيدة يصور فيها مأساة المسلمين ويستنجده لانقاذهم والدفاع عن حرمات المسلمين[٢] .

وتختلف الآراء حول مدى استجابة السلطان بايزيد لهذه الاستغاثة . فهناك من يقول إن الدولة العثمانية استجابت لنداء أهل الأندلس ، وأرسلت أسطولا إلى المياه الأسبانية لمساعدة حاكم غرناطة المحتضر[٣] . وهناك من يقول إن مشاكل السلطان الداخلية قد حالت دون ذلك خاصة وأن نزاعه مع أخيه جم على العرش وما أثاره ذلك النزاع من مشكلات مع البابوية وبعض الدول الأوربية ثم التحالفات الصليبية ضد الدولة قد جعلته يصم أذنيه عن تقديم النجدة لأهل الأندلس .

والواقع ان إرسال أسطول عثمانى لمساندة أهل الأندلس فى محنتهم لم يثبت تاريخيا وان كان هناك بعض المصادر الثانوية التى أشارت إلى ذلك[٤] . حقيقة أن الدولة العثمانية كانت تمتلك جيشا يشار إليه بالبنان ، ولكن هذا الجيش كان قوامه القوات البرية وليست البحرية . يضاف إلى ذلك أن هزائم الدولة العثمانية البحرية كانت تجعلها تحجم عن المخاطرة[٥] وتساند أهل الأندلس المحاصرين بالشاطىء ، والذين كانوا فى حاجة إلى قوة بحرية قوية وإلى جانب ذلك فان السلطان بايزيد كان ميالا للسلم أكثر منه للحرب ، وفى عهده عموما لم تحدث فتوحات تذكر .

ويميل بعض الباحثين إلى تبرئة ساحة الدولة العثمانية بالنسبة لسقوط الأندلس بحجة أنها لم تكن تستطيع أن ترسل جيوشها إلى هناك بسهولة بينما يرى البعض الآخر أن العثمانيين قصروا فى نصرة اخوانهم فى الأندلس ، ولم يسارعوا إلى نجدتهم ودويلاتهم المتهرئة تتساقط الواحدة تلو الأخرى .

١- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ص ٩٠٣ .

٢- شهاب الدين المقرى التلمسانى: أزهار الرياض فى أخبار عياض - تحقيق مصطفى السقا وآخرين جـ١ ، القاهرة ، ١٩٣٩ ص ١٠٩-١١٥ .

٣- ستانلى لين بول : الدولة الإسلامية ، القسم الأول - ترجمة محمد صبحى فرزات ص٦٥ .

٤- ذكر ستانلى لين بول ان السلطان العثمانى ساق أسطولا لنجدة أهل الأندلس بقيادة رجلا من حاشيته اسمه جمال ولكننا لم نجد فى المصادر التاريخية ما يشير إلى هذا الأسطول أو إلى التنويه بنجدة قدمها السلطان لمسلمى الأندلس .

٥- لتفاصيل ذلك انظر الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ، ص ٨٩٦-٨٩٨ .

والواقع ان الدولة العثمانية عقب فتح القسطنطينية فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م كانت منشغلة فى حروب متعددة مع النمساويين والألمان والمجريين والألبان والصرب والجبل الأسود واليونان وإمارتى جنوة ونابلى وغيرها ، وكان على آل عثمان إذا أرادوا إنقاذ الأندلس القيام بمغامرة غير مأمونة العواقب حيث يتركون الجبهة الأوربية ، ومنطقة الأناضول مكشوفة ويذهبون للحرب على مسافة هائلة دون استعدادات بحرية مجدية لنقل الجنود من أقصى شرق أوربا إلى أقصى جنوبها الغربى شبه جزيرة إيبريا ليحاربوا حربا وسط اقليمين كبيرين هما أسبانيا والبرتغال المدعومين من كل القوى الصليبية فى الشمال[1] .

وهكذا يتضح أن الدولة العثمانية لم تستطع لظروفها الداخلية والخارجية أن تمد يد المساعدة لمسلمى الأندلس لانقاذهم من الوقوع فى براثن الصليبية ، وبقى مسلمو الأندلس يواجهون ضراوة الموقف وحدهم .

ثانيا : دولة المماليك :

اتجه سلاطين غرناطة وأهلها إلى مصر يلتمسون معونتها أمام الخطر الصليبى المحدق ببلادهم فأرسل السلطان محمد بن يوسف بن نصر رسالة[2] إلى السلطان أحمد بن محمد بن قلاوون[3] يوضح له فيها الأحوال التى آلت إليها الأندلس وما يضمره النصارى من شر ، ويناشده المساعدة لانقاذ الإسلام بقوله "والدين غريب والغريب يحن إلى أهله والمرء كثير بأخيه على بعد محله[4] .

ويبدو أن المشاكل التى اقترن بها عصر السلطان أحمد قد حالت بينه وبين بسط يد المساعدة للأندلس ، خاصة وأن سلطنته لم تستمر سوى شهرين واثنى عشر يوما[5]. ونتيجة لذلك تكرر طلب النجدات من مصر فأرسل السلطان عبد الله بن محمد بن

١- محمود الشاذلى : المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص ٥٠-٥١ .

٢- عن فحوى هذه الرسالة انظر: المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ١ - تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص ٣٢١-٣٢٦ .

٣- أكبر أبناء الناصر محمد بن قلاوون ، تولى الحكم أواخر عام ٧٤٢هـ .

٤- نفح الطيب ص ٣٢٦ .

٥- انظر محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى جـ١ ، القاهرة ، مكتبة الآداب ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ص ٤٣ .

نصر[1] حاكم غرناطة إلى الظاهر جقمق العلائى[2] سلطان مصر برسالة عام ٨٤٤هـ يلتمس منه النجدة والعون ضد "الإفرنج المجاورين" والتى يمكن عن طريقها أن يتقوى بها المسلمون فى الدفاع عن أنفسهم ضد الخطر المحيط بهم[3] وكان رد السلطان المملوكى على هذه الرسالة أن مصر بعيدة عن بلاد الأندلس ، ومن الصعب تجهيز قوات عسكرية لمساندتها لحيلولة البحر والافتقار إلى المراكب الكثيرة ووعد بمخاطبة العثمانيين[4] فى مساعدة غرناطة ، وكان رد السفير على ذلك "يا مولانا السلطان ! نصركم الله أنت كبير الملوك والسلاطين ، وخديم الحرمين الشريفين ولم نجىء إلا إلى حضرتكم وحاشا أن تردنا خائبين" وأخيرا وافق جقمق على تقديم معونات مالية ومعدات عسكرية إلى غرناطة[5] . ونتيجة لاشتداد ضغط النصارى على غرناطة وقيام ايزابيلا بطلب الجزية من أميرها فى عام ١٤٧٦م واحتقار الأمير لهذا الطلب بقوله "إن دار الضرب عندى لم تعد تضرب عملة ذهبية وإنما تضرب الفولاذ" واستئناف الحرب بين الطرفين وتقدم جيوش فرديناند وايزابيلا اضطر أمير غرناطة إلى إرسال بعض مبعوثيه برئاسة الفقيه الأندلسى أبى على بن على بن محمد الأزرق إلى السلطان الأشرف أبى النصر قايتباى[6] فى ذى القعدة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م يستنجد به ضد المسيحيين ويستنهض عزائمه لمساندة أهل الأندلس[7] فى قتالهم للمحاصرين لبلاده الذين أشرفوا على أخذ غرناطة[8] .

١- تذكر بعض المصادر والنصوص الأجنبية أن سلطان غرناطة فى ذلك الوقت كان محمد بن يوسف الأيسر ، ولكننا أخذنا برأى المقريزى .

٢- تولى سلطنة مصر من عام ٨٤٢-٨٥٧هـ (١٤٣٨-١٤٥٣م) . للتفاصيل انظر السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ٣ ص٧١-٧٤ ، وأيضا ابراهيم طرخان مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٠م ص ١٤٦ .

٣- لتفاصيل ذلك انظر د. عبد العزيز الأهوانى: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى (سنة ٨٤٤) مقال منشور بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر جـ١ مايو ١٩٥٤ ص ٩٥ .

٤- يقصد مخاطبة السلطان مراد بن محمد ، وكانت الصلة بينها طيبة .

٥- د. ابراهيم طرخان : المرجع السابق ص ١٤٦ .

٦- وثب إلى عرش مصر فى عام ٨٧٢هـ ، وكان عهده بداية النزاع بين العثمانيين والمماليك .

٧- أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م ص٤٦٨ .

٨- محمد بن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٢، القاهرة ، مطبعة بولاق ١٣١١هـ ص٢٤٦ .

ولما لم يكن فى مقدرة السلطان المملوكى القيام بعمل عسكرى لمساندة أهل الأندلس خاصة وأنه كان يستعد لمنازلة السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، هذا إلى جانب بعد المسافة بينه وبينهم وصعوبة المواصلة ، واحتياج الأمر لمقدرة بحرية ضخمة لم يستطع إليها سبيلا فقد حاول انقاذ الموقف عن طريق الضغوط السياسية فأرسل إلى كبير قساوسة كنيسة القيامة بالقدس يذكره بما يتمتع به نصارى الشرق من حريات وأمان على أنفسهم وعقائدهم ويطالبه بإرسال مكاتبة على يد قسيس من أعيانهم إلى ملك نابلى[1] ، وإلى بابا روما[2] للتدخل لدى ملك قشتالة وأرجوان بأن يحل عن أهل غرناطة ويرحل عنهم[3] ولا يتعرض لهم ويرد إليهم ما استولى عليه من أراضيهم ، وإلا فانه سيضطر إزاء هذا العدوان أن يتبع نحو نصارى الشرق سياسة القصاص ، ويجلب عليهم المتاعب، ويقوم بالتنكيل بهم ويمنعهم من دخول كنيسة القيامة ويقبض على أعيانهم ويهدم الأديرة والمعابد والآثار النصرانية المقدسة[4] .

ومع أن كبير قساوسة كنيسة القيامة استجاب لطلب السلطان المملوكى ، وكاتب ملك نابلى فان هذه المحاولة لم تفد بشىء .

وفى محاولة أخرى من السلطان المملوكى أمر بارسال وفد من رعاياه النصارى[5] إلى روما ونابلى ، وإلى الملكين الكاثوليكين فرديناند وايزابيلا يعاتبهم على ما يحدث لأبناء دينه فى غرناطة ، ويهددهم باضطهاد نصارى الشرق إن لم يكف عن مهاجمة غرناطة ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضا[6] وسقطت غرناطة فى صفر ٨٩٧هـ/١٤٩١م وانتهت بذلك دولة الإسلام فى أسبانيا . ومع ذلك فان وساطة المماليك وتوعداتهم لم تتوقف عند سقوط غرناطة فقد أرسل السلطان المملوكى وفدا إلى أسبانيا فى عام ١٥٠٠م للتعرف على إذا ما كان المسلمون الأندلسيون قد أجبروا على الارتداد عن

١- هو فرديناند الأول .

٢- هو البابا انوصان الثامن .

٣- ابن اياس : المصدر السابق ص ٢٤٦ .

٤- Prescott, William, H : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, London 1895 P. 278 .

٥- تكون هذا الوفد من راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وقد وصل هذا الوفد إلى أسبانيا فى عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م أى قبيل سقوط غرناطة . انظر عنان : نهاية الأندلس ص١٦٧-١٦٨ وأيضا Prescott: op. cit P. 278.

٦- لم ينفذ السلطان المملوكى وعيده باتخاذ اجراءات عنيفة ضد النصارى لانشغاله عندئذ بصد غارات بايزيد الثانى على حدود مصر الشمالية ، واضطراب أحوال مصر خلال هذه الفترة .

دينهم واعتناق النصرانية ، وعن مدى صحة ما تردد عن تحويل المساجد إلى كنائس ، وليخبر الملك فرديناند والملكة ايزابيلا بأن السلطان المملوكى سوف يقابل الاعتداء بمثله، ويثأر للمسلمين باضطهاد النصارى الخاضعين لحكمه[1] . وكان رد فرديناند على ذلك هو محاولة اقناع سلطان مصر بما يلقاه المسلمون فى الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئنه على مصيرهم .

والسؤال المطروح هل كان فى مقدرة مصر القيام بعمل عسكرى لانقاذ أهل الأندلس ؟

الواقع أن بعد المسافة ، وقصور امكانات المماليك الجراكسة البحرية خاصة وأنهم أصحاب خيل وقوتهم برية أكثر من كونها بحرية كان السبب فى التقاعس عن انقاذ الأندلس ، وان كان ما فعله المماليك لا يتعدى قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال المؤثرات الدينية مما أدى إلى ترك الأندلس لمصيرها[2] .

ثالثا : المغرب الأقصى :

توالت نداءات أهل الأندلس لملوك المغرب وحكامها يلتمسون نصرتهم ويطلبون منهم الغوث والنجدة غير أن الأوضاع الداخلية التى كانت عليها بلاد المغرب خلال هذه الفترة ، وانقسامها إلى دويلات عدة تحاول تمزيق بعضها بعضا وازدياد النفوذ الأسبانى البرتغالى على السواحل المغربية كل ذلك جعل من االصعب القيام باجراءات فعالة لنصرة أهل الأندلس[3] وانقاذهم من المأساة التى تعرضوا لها كما حدث فى الماضى غير مرة[4] فسقطت غرناطة آخر ما تبقى من بلاد الأندلس للإسلام وطويت صفحة الحكم الإسلامى فى شبه جزيرة ايبريا .

وبعد هذا العرض لمواقف القوى الإسلامية من الأندلس أثناء محنتها يطرح سؤال نفسه لماذا لم تتآزر القوى الإسلامية وتتفق على خطة موحدة لمساندة أهل الأندلس وانقاذهم من السقوط بعد أن داهم العدو ساحتهم ومد الصليب ذراعيه إليهم على الرغم من أن القرآن الكريم والسنة النبوية يحضان على ذلك فيقول تعالى "إن الله يحب الذين

١- مؤلف مجهول: وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة – ترجمة محمد عبد الله الشرقاوى ، القاهرة ، دار الهداية ص ١٢-١٣ .

٢- عنان : مصر الإسلامية ص ١٤٣ .

٣- الشناوى : مرجع سابق جـ٢ ص ٩٠٤ .

٤- Irving, Wilegends of the conquest of Spain P.P 220-221 .

يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" ، ويقول الرسول الكريم "من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار" و"من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا" .

الواقع أن العلاقات بين القاهرة والآستانة خلال هذه الفترة كان يسودها القطيعة والجفاء خاصة وأن العثمانيين كشفوا مرارا عن نيتهم في غزو مصر ، مما جعل حكام مصر يقفون منهم موقف الحذر المتأهب ، وينصرفون إلى الاستعداد للتقاتل بدلا من مساندة أهل الأندلس . يضاف إلى ذلك ما كان بين العثمانيين والصفويين في إيران من صراع وصل مداه إلى حد أن يقوم الشاه إسماعيل الصفوى بطلب المساندة العسكرية من ملوك أوربا الذين حرصوا على توسيع شقة الخلاف بين الدولتين الإسلاميتين فتحالف البرتغاليون مع الدولة الصفوية ضد الدولة العثمانية كما دخل الشاه إسماعيل الأول في مراسلات مع الامبراطور شارلكان للتحالف ضد العثمانيين ، يضاف إلى ذلك أن الصراع في المغرب الأقصى للوصول إلى الحكم والحروب الطاحنة بين الأسر المتنافسة قد حال دون تقديم المساعدات اللازمة لأهل الأندلس .

وهكذا يتضح أن السبب الرئيسى فى محنة الإسلام بالأندلس نتج عن فرقة المسلمين وتشرذمهم ، والعداء المستحكم بين حكامهم ، ونجاح حكام أوربا فى توسيع شقة الخلاف بين هؤلاء الحكام لدرجة أن استعان بعضهم بالنصارى ضد اخوانهم فى الدين .

وعلى أى حال فقد استوعب العثمانيون الدرس جيدا ، ورفضوا تكرار ما حدث للأندلس فى أى منطقة إسلامية أخرى واستمرت عقدة الشعور بالذنب تلاحقهم حتى واتتهم الفرصة لاستعادة ثقة العالم الإسلامى بهم عندما طلب منهم أهل شمال أفريقية النجدة ضد البرتغاليين والأسبان فقام السلطان سليم الأول بحسم الموقف ، ومساندة المسلمين وتثبيت دعائم الإسلام هناك .

الموضوع الثالث

الانكشارية

لما كان الطابع العسكرى الشديد الصرامة إحدى سمات الدولة العثمانية ، لم تظفر هيئة بها بمثل الاهتمام الذى ظفر به الجيش العثمانى وخاصة أنها كانت تنظر إلى الجيش على أنه أداتها فى الفتوحات الحربية ، ووسيلتها فى حكم الأقاليم التى استولت عليها ، ودرعها فى الدفاع عن ممتلكاتها[١] لدرجة أن شبه بعض المؤرخين الجيش العثمانى بعملة نقش على أحد وجهيها لفظة الحرب ، وعلى الوجه الآخر كلمة الحكم .

وقد اعتمد قوام الجيش العثمانى على تجنيد أبناء رعايا السلطان من المسيحيين ، وذلك من طريق ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة فى استانبول سماها العديد من المؤرخين "ضريبة الغلمان" وسماها بعضهم "ديوشيرمه" ، فقد كان العشرات من صغار هؤلاء الرعايا يؤخذون من أهلهم ، وتتم تنشئتهم بطريقة تتسم بالصرامة والتدريب العقلى والجسمى ، كما يتم تحويلهم إلى الإسلام ثم يختار منهم من يصلح للعمل فى مشاه الجيش العثمانى ويطلق عليهم الانكشارية ومعناها الجنود الجدد ، ومعنى ذلك ان هؤلاء الجنود كانوا بمقتضى اعتناقهم الإسلام وإبعادهم عن بلادهم الأصلية وترسيخ الولاء للسطنة فى نفوسهم يفقدون روابطهم الأصلية ، كما أنه لم يكن فى امكانهم تكوين روابط اجتماعية جديدة وخاصة أنه لم يكن يسمح لهم بالزواج ، ولم يكن لهم أقارب بين الأهالى ولم يكن يسمح لهم بأن يبتعدوا عن ثكناتهم وبذلك توثقت روح الجماعة بينهم ، كما تعمق ولاؤهم للسلطان[٢] وصاروا لا يعرفون لهم أبا إلا السلطان ، ولا حرفة إلا الجهاد فى سبيل الله[٣] ، ولا

١- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ، ص ٤٧١ .

٢- Adward Creasy : History of the Ottoman Turks, London 1818, P. 14

٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص ٤٢ .

مسكنا إلا ثكناتهم العسكرية .

وترجع فكرة فرض ضريبة الغلمان إلى وزير السلطان "أورخان" ثانى سلاطين آل عثمان المسمى "هابيل الأسود" . وقد أعجب السلطان بهذه الفكرة ، ولما تجمع لديه عدد غير قليل من هؤلاء الغلمان سار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ الطريقة البكطاشية ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (ينى تشارى) أى الجيش الجديد ، ثم جرف هذا الاسم فى العربية فصار الانكشارى ، وبالتدريج ازداد عدد هؤلاء وصاروا من أهم الركائز التى اعتمدت عليها الدولة فى حروبها وبسط سلطانها[١] ولكنهم صاروا بعد ذلك من أسباب تأخر الدولة وتدهورها . وقد بلغ عدد كتائبهم التى كانت تسمى كل منها أورطة ١٦٥ كتيبة ، ولم يزد عددهم على خمسة عشر ألف رجل[٢]، وكانت هذه الكتائب منظمة تنظيما متشابها وتعداد كل منها متساويا ، وكانت كل منها تحت قيادة ضابط يدعى (الجورباجى) يساعده ستة من مرؤوسيه وعدد من ضباط الصف ، وكانت تقيم فى ثكنات تسمى أورطة) ولكل كتيبة شارة توضع على أعلامها وعلى أبواب ثكناتها[٣] ، كما كانت توضع هذه الشارات على أذرعة الانكشارية وسيقانهم عن طريق الوشم ، وهذه الشارات كانت عبارة عن سمكة أو مفتاح أو خطاف . وكان ضباطهم يلقبون بألقاب تدل على أنهم كانوا يعيشون من انعامات السلطان وأنهم كأولاده ، ومن ألقابهم "شوربجى باشى" و "عشى باشى" و "اوده باشى" و "سقا أغاسى" إلى غير ذلك من الألقاب ، وكانت هذه الألقاب عندهم بمثابة عنوانات خاصة بالرتب العسكرية ثم أنهم كانوا يعظمون قدور الطعام ولا يفارقونها حتى زمن الحرب ، وكانوا يدافعون عنها دفاع الجنود عن أعلامهم لدرجة أن ضياع إحدى هذه القدور كان بمثابة إهانة تلحق بأصحابها العار ، وكانوا إذا أرادوا إظهار عدم الرضا من بعض أوامر رؤسائهم يقلبون القدور أمام ثكناتهم[٤] .

وكانت ترقيات الانكشارية تتم طبقا لقواعد الأقدمية ، وكانت الدولة تسرح الذين تتقدم بهم السن أو تصيبهم عاهة تقعدهم ، وفى كلتا الحالتين تقرر لهم الدولة معاشا .

١- محمد فريد : المرجع السابق ٤٢ .

٢-كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٩ ص ٤٦٦ .

٣- المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة العدد ٢٥-٢٦ فى يونيه ١٩٨٢ ص ١٠١ مقال الدكتور علاء موسى كاظم تحت عنوان "مسئولية الانكشارية فى تدهور الدولة العثمانية" .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٤٢ .

وقد خصت الدولة الانكشارية بعدة امتيازات منها أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم من خزانة السلطان ومنها منحهم حصانة تمنع السلطات المدنية من القبض عليهم ، وقيام ضباط الانكشارية بمعاقبة الأفراد المخطئين بأنفسهم . وكانت العقوبات تتفاوت بين الجلد والسجن والخصاء والاعدام ، وكانت عقوبة الخصاء توقع على معتادى الاجرام من الانكشارية أو ممن تتعدد حوادث خروجهم على قواعد الانضباط العسكرى فيأمر رئيس الانكشارية باجراء عملية الخصاء الجزئى أو الكلى لمن يحكم عليهم بذلك وبمقتضاها يفقد الانكشارى رجولته ويلتحق بالخدمة الداخلية فى القصر السلطانى .

وكان رئيس الانكشارية ويطلق عليه أغا الانكشارية أو بالمصطلح التركى (ينى شرية أغاسى) من أبرز الشخصيات فى الدولة العثمانية إذ كانت القوات العسكرية التى تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية فى سلاح المشاة تحت تصرف السلطان[١] ، كما أنه كان يعمل أيضا مديرا للشرطة فى استانبول وبجانب ذلك فانه كان بحكم منصبه عضوا بمجلس الدولة ، كما كان مقدما على كل قواد الدولة[٢] .

وترجع أهمية الانكشارية إلى عوامل عدة منها : كفاءتهم القتالية ، وشجاعتهم المفرطة ، ووفرتهم العددية ، وضراوتهم فى المعارك الحربية ، فكانوا يشكلون ثقلا حربيا أساسيا فى الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية دفاعا أو هجوما سواء فى آسيا أو أوربا أو افريقية .

وقد ترجع ضراوة الانكشارية فى القتال وخشونتهم وجفاء طباعهم إلى الصرامة التى اتسمت بها تربيتهم وخاصة أنهم كانوا يفتقدون جو الأسرة التى تزكو فيه شتى مشاعر الحب والعطف والحنان فنشئوا مجردين من جميع المؤثرات الإنسانية التى تساعد على تهذيب الطباع ، وتركز اهتمامهم على الاستبسال فى الحروب واسترخاص الموت . وكان الانكشارية غالبا ما يأخذون أماكنهم فى طليعة الجيش وقلبه فى أثناء المعارك وكان السلطان يتخذ مكانه خلفهم وإلى جانبه بيرق الحرب . وإلى جانب ذلك كان الانكشارية يتبعون السلطان فى تنقلاته وخصوصا أن بعضهم كانوا يؤلفون الحرس السلطانى[٣] وقد جعلهم ذلك يشعرون بمكانتهم .

وبقيت كتائب الانكشارية سندا وعونا للدولة فى فتوحاتها ومواجهة أعدائها ، واستطاعت الدولة عن طريقهم أن تمضى قدما فى سياسة التوسع ومواجهة أقوى جيوش

١- الشناوى : المرجع السابق ص ٤٨٢ .

٢- هاملتون جب وهارولد بوون : المجتمع الإسلامى والغرب - ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى وأحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١م ص ٨٩ .

٣- الشناوى : المرجع السابق ص ٤٨٢-٤٨٣ .

أوربا . ثم انقلبت الأمور رأسا على عقب بعد أن استشرى نفوذ الانكشارية وداخلهم الغرور ، وأخذوا يتسلطون على أمور الدولة ، ويزجون بأنفسهم فى أمر تعيين السلاطين، وتوالى تمردهم بعد ذلك فصاروا ثقلا كبيرا على كاهل الدولة ، لدرجة أن بلغ بهم الأمر أنهم لا يسمحون للسلطان الجديد بارتقاء أريكة الحكم قبل أن يغدق عليهم العطايا التى أطلق عليها كلمة البخشيش . وإلى جانب ذلك بدأت ظاهرة تدخل الانكشارية فى المسائل السياسية منذ عهد السلطان بايزيد الثانى ١٤٨١-١٥١٢ ، وظهر تمردهم على السلطان سليم الأول فى أثناء محاربته للصفويين فى فارس ومطالبتهم له بوقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات فاضطر إلى العودة إلى بلاده استجابة لضغوطهم[1]، وتكررت حالات التمرد بعد ذلك . وإلى جانب ذلك تمادوا فى مطالبهم غير المشروعة كلما آنسوا من السلطان الحاكم ضعفا ، ووصل بهم الأمر أنهم كانوا يعزلون السلاطين والصدور العظام والوزراء وكبار رجال الدولة ، ويقتلون بعضهم ، ويتدخلون فى تعيين غيرهم فى المناصب التى تخلو بقتل أو عزل شاغليها .

وازدادت مخاطر الانكشارية تفاقما عندما قررت الحكومة العثمانية تطوير جيوشها بعد الهزائم التى حاقت بها وذلك بادخال النظم العسكرية الحديثة التى أخذت بها الدول الأوربية فى جيوشها ، فقد عارض الانكشارية ادخال مثل هذه النظم معارضة شديدة، وكانوا أكبر عقبات الاصلاح العسكرى فى الدولة العثمانية ، لاعتقادهم أنها ستؤدى إلى إدماجهم أو ذوبانهم فى الفرق العسكرية الجديدة ، وبدأوا فى اعلان تمردهم وعصيانهم فى وجوه السلاطين ، فاغتالوا السلطان سليم الثالث فى عام ١٨٠٨ لاصراره على إدخال النظم العسكرية الحديثة بين صفوفهم ، ونجحوا فى إجبار عدد من السلاطين على إلغاء هذا النظام الجديد ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتدت شرور الانكشارية إلى المدنيين فاقتحموا بيوتهم وانتهكوا أعراضهم ، وعمدوا إلى حرق الأحياء التى تقف أمامهم ، وهاجموا المحلات التجارية ، وبعد أن فاض الكيل وأصبح الانكشارية أشد عناصر الفساد فى جسد الدولة ، رأت الحكومة إبعادهم عن العاصمة فأمرت بتوزيع فيالقهم على الحدود، كما سمحت لهم بالزواج لشغلهم بمشكلات الحياة الزوجية ، وأذنت لهم بممارسة بعض الحرف والاشتغال بالتجارة فى أوقات السلم ، ومع كل ذلك فقد ظل الانكشارية مركز قوة[2] . ولما تولى السلطان محمود الثانى العرش ١٢٢٣هـ (١٨٠٨-١٨٣٩م) أدرك أنه لن يتمكن من وقف طغيان الانكشارية إلا باصلاح أحوال الجيش ، فجمع أعيان الدولة وكبار ضباط الانكشارية فى بيت المفتى وقام الصدر الأعظم سليم

١- جلال يحى : العالم الإسلامى الحديث والمعاصر جـ١ ، الاسكندرية ١٩٨٢ ص٥٨٦-٥٨٧ .

٢- الشناوى : المرجع السابق ص٤٩٤-٥٠٢ .

أحمد باشا خطيبا فبين الحالة التى وصلت إليها الانكشارية من الضعف والانحطاط والقصور فى فنون الحرب الجديدة ، وبين ضرورة إدخال النظم العسكرية الحديثة . ثم أفتى المفتى بجواز العمل بمقاومة المعارضين له ، وقد وافق كبار ضباط الانكشارية على إدخال النظم العسكرية ظاهرا وأبطنوا خلاف ذلك إذ سرعان ما ثاروا عند تنفيذ هذه الاصلاحات وخاصة أنها ستفقدهم سلطانهم ، فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية التمرد فشجعوه على إبادة الانكشارية ، لذلك استعد لقتالهم ، وأمر بأن تحيط المدفعية بميدان (آت ميدانى) الذى اجتمع فيه العصاة وأن توجه قذائفها عليهم ، وقد حاول الانكشارية الهجوم على المدافع ولكنها أحرقتهم بلهيب نيرانها فهربوا إلى ثكناتهم طلبا للنجاة فأحرقت وهدمت فوقهم وبذلك قضى على قوتهم بصفة نهائية ، وقضى معهم على فرقة البكتاشية الصوفية التى كانت تساندهم ، وصدر مرسوم سلطانى بإلغاء فئة الانكشارية وملابسهم واصطلاحاتهم وإعدام كل من تبقى منهم وكان ذلك فى التاسع من ذى القعدة ١٢٤١هـ[1].

وبذلك انفتح الطريق لبناء النظم العسكرية الحديثة فى الجيش العثمانى وأزيلت الحواجز أمام دخول الخبراء الأوربيين لتطويره .

والسؤال المطروح: هل كان القضاء على الانكشارية فى صالح الدولة العثمانية من ناحية القوة العسكرية أم كان سببا فى اضعافها وازدياد التغلغل الأوربى فى ممتلكاتها.

الواقع أن القضاء الانكشارية قد أتاح الفرصة للأوربيين وغيرهم لالحاق العديد من الهزائم بالدولة العثمانية التى بدت أمامهم شبه عارية وحررهم من الرهبة منها وكان من الأجدى بالسلاطين العثمانيين القضاء على الأسباب التى أفسدت الانكشارية وليس القضاء على الانكشارية كنظام والدليل على ذلك أنه بعد القضاء على الانكشارية بسنوات قليلة تمكنت الروسيا من الاستيلاء على العديد من المناطق والأقاليم التابعة للعثمانيين وأجبرت السلطان على توقيع معاهدات مهينة منها إجباره فى عام ١٨٢٩ على توقيع اتفاق تنفتح به أبواب الدولة العثمانية أمام الروس من ناحيتى القوقاز والدانوب ، ومن ناحية أخرى فقد تم هزيمة الدولة العثمانية فى موقعة نفارين البحرية فى عام ١٨٢٧م وتحطم أسطولها، واضطر السلطان إلى الموافقة على استقلال اليونان ، كما نجحت فرنسا فى الاستيلاء على الجزائر فى عام ١٨٣٠م ، هذا إلى جانب قيام محمد على بحملته على بلاد الشام فى عام ١٨٣٠م ونجاحه فى إلحاق العديد من الهزائم بالعثمانيين واعلان داود باشا والى العراق العصيان على الدولة .

١- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ١٣٤-١٣٥

ومما سبق يتضح أن الانكشارية كانوا فى بداية نشأتهم قوام الجيش العثمانى وعماده ، وأنهم شاركوا بشكل أساسى فى الدفاع عن الدولة وخلال فتوحاتها ، وبذلوا النفس والنفيس فى سبيل اعلاء شأن الإسلام ، ولكن وضعهم سرعان ما تغير فدب الضعف والفساد فى نظامهم ، ووقفوا حجر عثرة أمام كل المحاولات الرامية إلى تحديث الجيش العثمانى كما تحولوا إلى عصابات مسلحة هدفها االاعتداء على النظام ، والتدخل فى سياسة الدولة العليا وترويع الآمنين والاعتداء على حرماتهم ، مما دفع بالسلاطين إلى القضاء عليهم .

الموضوع الرابع

العثمانيون والعالم العربى

• العثمانيون بين قوتين

فى بدايات القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى تزعم العالم الإسلامى ثلاث قوى متميزة وهى: دولة المماليك فى مصر والشام والحجاز واليمن ، والدولة الصفوية فى فارس ، والدولة العثمانية فى الأناضول والبلقان . وقد استطاعت أن تمد سيطرتها إلى المجر .

ولما كانت كل قوة من هذه القوى تخشى على نفسها من تعاظم القوتين الأخريين فقد عمل كل طرف من هذه الأطراف على إيجاد عملية توازن مع الطرفين الآخرين حتى لا يشكل أحدهما خطرا عليه . وعلى الرغم من ذلك فإن الصدام بين هذه القوى كان متوقعا ، وكان الحذر المشوب بالقلق ينتاب كلا منهم تجاه الآخر . وانتهى الأمر بتحول الجهاد الإسلامى ضد النصارى إلى حروب فيما بين المسلمين أنفسهم ، وفيما يلى نعرض لهذه الأطراف الثلاثة ، والصراع الذى حدث بينهم وانتهى بانتصار العثمانيين .

أولا : الصفويين : -

ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين اسحق الأردبيلى[١] (٦٥٠-٧٣٥هـ) (١٢٥٢-١٣٣٤م) وقد بدأ نفوذهم يبرز فى إيران خلال القرن التاسع الهجرى وكانوا يقولون بامتداد نسبهم إلى الحسين بن على بن أبى طالب[٢] من جهة ، وإلى يزدجرد الساسانى من جهة أخرى ، وقد أسس أحدهم وهو إسماعيل الصفوى دولتهم فى أذربيجان عام ٩٦٠هـ/١٥٠٠م ثم بسط نفوذه فى شروان والعراق والأوزبك وفارس واتخذ من تبريز[٣] عاصمة لدولته .

١- أردبيل فى أزربيجان .

٢- لتفاصيل ذلك انظر د. ربيع جمعه : الشاه إسماعيل الكبير ، بيروت، دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

٣- تقع فى الشمال الغربى من إيران بالقرب من الحدود التركية .

وما إن تم لإسماعيل الصفوى بسط نفوذه على إيران كلها حتى كشف عن عزمه على إعلاء شأن الشيعة(١) فأعلن أنه سليل الإمام السابع(٢) . كما أعلن أن المذهب الشيعى هو دين الدولة . ولكى يحقق أهدافه فى تحويل إيران إلى المذهب الشيعى رأى أن القوة السياسية يجب أن تساندها قوة عسكرية مخلصة تربطها به وشائج عقائدية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة فى الدفاع عن معتقداتها ، ومن هنا اعتمد على القوى العشائرية المتعصبة للمذهب الشيعى حتى صارت دعامة قوية وسندا للأسرة الصفوية(٣) . وحارب إسماعيل الصفوى أهل السنة ، وكان أهل السنة أكثرية سكان البلاد فى ذلك الوقت(٤) وراح يحملهم قسرا على الدخول فى المذهب الشيعى ومن أجل ذلك لم يتردد فى إفناء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوته(٥) .

وفى هذا الوقت الذى ظهر فيه الصفويون كان البرتغاليون يلتفون حول أفريقية ويدخلون المحيط الهندى ، ولما اتصلوا بشيعة إيران لم يجدوا صعوبة فى التعاون معهم من أجل القضاء على الأساطيل العربية ، واحتلال سواحل الخليج ، وتصفية الحكم العربى أينما وجد ، وغزو الجزيرة العربية(٦) فى نظير مساعدة البرتغاليين للشاه فى اخماد ثورة مكران(٧) .

١- د. أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص ١٥٢ .

٢- الامام السابع عند الامامية الجعفرية هو موسى الكاظم .

٣- عبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ ص ٢٢٠-٢٢١ .

٤- أرنولد توينبى : تاريخ البشرية جـ٢ ، ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر ١٩٨٨ ص ١٨٨ وأيضا د. عبد الله محمد غريب وجاء دور المجوس - الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية ، القاهرة ، دار الجيل للطباعة ١٩٨١ ص ٨٠ .

٥- الساداتى : المرجع السابق ص ١٥٢ .

٦- كان من أهداف غزو الجزيرة العربية قيام البرتغاليين بالاعتداء على مكة والمدينة ولكن الله حمى بيته الحرام ومثوى رسوله الأمين .

للتفاصيل انظر ل.جى. لوريمر: الكويت فى دليل الخليج ، الكويت ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٩٨١ ص١٠ .

٧- أمين سعيد : الخليج العربى فى تاريخه السياسى ونهضته الحديثة ، بيروت ، دار الكاتب العربى ص ٢٩ .

ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنى فقد وجدوا فى الدعوة الصفوية الشيعية تحديا أساسيا لهم ، وخطرا على مستقبلهم وخصوصا أن الشاه إسماعيل الصفوى بدأ يمد نفوذه على العراق وعلى مناطق الأوزبك[1] وشرق الأناضول ، ويرسل مئات الدعاة لنشر المذهب الشيعى هناك[2] حتى لقى هذا المذهب استجابة واسعة فى هذه المناطق[3] . ونتيجة لذلك غير السلطان سليم الأول - الذى تولى العرش بتأييد من الانكشارية باعتباره منقذا للامبراطورية العثمانية من الخطر الشيعى - خطة أسلافه بالتوسع شطر شرق أوربا إلى جنوبى الأناضول لمقاتلة الصفويين ووقف المد الشيعى تجاه بلاده ، فأعلن سليم الأول الحرب على الصفويين ، وزحف بجيوشه من مدينة أدرنة فى ٢٢ من المحرم ٩٢٠هـ ، الموافق ١٩ من مارس ١٥١٤م قاصدا مدينة تبريز ، ولكى تنهك قوات الشاه إسماعيل الصفوى قوى العثمانيين بدأت تتقهقر أمامهم فى محاولة لاستدراجهم[4] . واستمر الصفويون فى تقهقرهم حتى دارت المعركة الحاسمة بين سليم الأول والشاه إسماعيل الصفوى فى وادى شالدران (جالديران) فى ٦من رجب ٩٢٠هـ/١٥١٤م وانهزم الفرس وانتصرت الجيوش العثمانية[5] ، بعد معركة فاصلة وصفها أحد المعاصرين بقوله "كان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وتذهل العقول عند سماعها من كل دان وقاص ، فصيرت الرؤوس عن الأجساد طائرة ، وطفشت[6] العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى أجرى الدماء منهم كالسيل .. فيا لها من ساعة مهولة ، لا ترضى الله ولا رسوله ، فوقعت الكسرة على عساكر ابن عثمان أولا وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ... فلما عاين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة .. قام على عسكره وحضهم على القتال .. فانكسر الصوفى وولى

١- كان الأوزبك يحكمون بلاد ما وراء النهر التى تضم التركستان وبخارى وسمرقند .

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى ، بيروت ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص ٧٧ .

٣- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ، القاهرة، الأنجلو المصرية ص١٩ .

٤- محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص ١٩٠ .

٥- عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشا ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص٦ .

٦- كلمة عامية بمعنى فرت .

مهزوما وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عساكر الروم[1] .

وفر الشاه بعد أن أصابته بجروح ، ووقع كثير من قواده وجنده فى الأسر وأسرت أيضا إحدى زوجاته ، وفتحت المدينة أبوابها ودخلها السلطان منصورا فى ١٤ من رجب ٩٢٠هـ واستولى على خزائن الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية[2] وقطع رؤوس من قتل من أمراء أعدائه وأرسلها إلى بلاده فطافوا بها هناك[3] ، ولكن سليما لم يشأ أن يتابع تقدمه إلى ما وراء تبريز نظرا لامتناع الانكشارية عن التقدم لاشتداد البرد ، وصعوبة المسالك ، وقلة المؤونة اللازمة فقفل راجعا إلى بلاده مكتفيا بكبح جماح الفرس[4] ، وخشية ثورة الانكشارية عليه .

ونتيجة لمعارك السلطان سليم مع الصفويين يتضح ما يلى :

١- نجاح العثمانيين فى الحد من نشر المذهب الشيعى فى الأناضول والبلاد العربية حيث منعوا زحف المذهب الشيعى على الشرق العربى الآسيوى ومصر ، واستأصلوا هذا المذهب من الأناضول[5] .

٢- استثمار أوربا لهذه الخلافات ومحاولتها التسلل إلى الشرق الإسلامى ، ومدها للفرس بالأسلحة الحديثة ليحاربوا بها العثمانيين بغية الحد من زحفهم المتواصل على أوربا[6] .

٣- استيلاء العثمانيين على ديار بكر ، ومد سلطانهم على الأجزاء الشمالية من العراق .

٤- هز كيان الموالين لإيران وزعزعة نفوذهم[7] .

١- محمد بن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٤ ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٤٠٢-٤٠٣ .

٢- محمد فريد : المرجع السابق ص ١٩٠ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق ص ٤٠٣ .

٤- نوار : المرجع السابق ص ٦ .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٢٤ .

٦- الساداتى : المرجع السابق ص٢٥٢ .

٧- مجموعة الأساتذة : العراق فى التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ص٥٦٨ .

ثانيا : الأتراك العثمانيون : -

ينتمى العثمانيون الأوائل إلى إحدى عشائر قبيلة الغز التركية ، والتى تعرف باسم قابى ، وقد هاجرت هذه القبيلة من المشرق إلى الأناضول فى القرن الثالث عشر الميلادى هربا من جنكيزخان ووصلت إلى آسيا الصغرى وبعض شواطئ البحر الأسود وأرمينيا حيث التجأت إلى السلاجقة المسلمين فحموهم وأقطعوهم أراضى لمواشيهم .

وكانوا يعتمدون فى حل ما يواجههم من مشكلات على زعيمهم عثمان الذى ولد على حسب الروايات التاريخية فى عام ١٢٥٨م ، ولما كانت الحروب الصليبية قد دارت رحاها فى ذلك الوقت فقد تطوع عثمان مع بعض رجاله لنصرة بعض سلاطين السلاجقة، وأظهر شجاعة وحسن دراية فاستدعى ذلك مكافأته وتقديره ، فعين حاكما على إحدى المقاطعات ، وبعد وفاة السلطان السلجوقى أعلن عثمان استقلاله[١] ، وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الايلخانيين تمكنت الإمارة من استقطاب عدد من الإمارات التركية المسلمة فى الأناضول وهى الامارات الناشئة على انقاض دولة السلاجقة واستأنفت توسعها غربا فاتجهت منذ سنة ١٣٤٥م إلى أوربا الشرقية فاستولت على أجزاء كبيرة منها وتوجت أعمالها العسكرية فى عهد محمد الفاتح بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م .

وما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الأناضول واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر إيجة وجزيرة فى جنوب إيطاليا[٢] .

وفى عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م اتجهت الفتوحات نحو الشرق ، بعد تحديات الشاه إسماعيل الصفوى لأهل السنة والجماعة ، فدفع ذلك سليما إلى العمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام . ولم يكن السلطان سليم يرى كبير فرق بين الشاه إسماعيل وجنده ، وبين أى من حكام أوربا فى عدائهم للإسلام ، خصوصا أن الشاه رسم سياسته التوسعية على أساس التحالف مع البرتغاليين . ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنى فقد اتخذت عملياتهم العسكرية ضد الصفويين شكل التدمير والقسوة البالغة[٣] ، وانتهت بانتصارهم فى جالديران ودخول تبريز عاصمة الصفويين ،

١- ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨م ص١٩ .

٢- العراق فى التاريخ ص٥٦٦-٥٦٧ .

٣- أكرم العلبى: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ، المتحدة للتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٣٦٨ ..

وزعزعة النفوذ الإيرانى فى المنطقة ، وهز كيان الموالين لهم[1] . وبعد خروج الصفويين من حلبة الصراع بدأ السلطان سليم يوجه جهوده لاخضاع المماليك ، واعداد العدة لتوحيد الجبهة الإسلامية .

ثالثا : المماليك : –

جلب المماليك من مناطق عدة من أبرزها شبه جزيرة القرم وتركستان وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس والبحر الأسود[2] ، وكان ذلك بطريق الشراء من أسواق النخاسة[3] .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب أول من اشترى المماليك بشكل مكثف واتخذ منهم جندا بأعداد كثيفة ، وبعد وفاته أفلت زمام الأمور من الأيوبيين وتمكن المماليك من السيطرة على زمام الموقف والقضاء على توران شاه الوريث الشرعى للحكم .

وقد حكم المماليك العديد من البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام والحجاز ، واستطاعوا حماية ديار الإسلام من المغول الذين تمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد فى عام ٦٥٦هـ ، كما تمكنوا من الثبات أمام قوى الصليبيين الذين حكموا العديد من بلاد الشام لفترة ثم أخرجوهم منها .

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية وتحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح بدأت أحوال المماليك فى التدهور والضعف بشكل مكن البرتغاليين من هزيمتهم فى موقعة "ديو البحرية" فى عام ١٥٠٩م والاستيلاء على بعض المناطق الاستراتيجية فى البحر الأحمر وتهديد الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز وفى خلال ذلك كانت العلاقات المملوكية مع العثمانيين جيدة ، لدرجة أن قام العثمانيون بمساعدة المماليك لتقوية أسطولهم البحرى حتى يتمكن من مواجهة البرتغاليين ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد انتصار السلطان سليم العثمانى على الصفويين بدأ فى التحرش بالمماليك حيث

١- العراق فى التاريخ ص٥٦٨ .

٢- للتفاصيل انظر أبو العباس القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء جـ٤ ، القاهرة ، ١٩٢٢ ص٤٤٧ .

٣- كان بالقاهرة أسواق لهذا الرقيق تعقد فى خان الخليلى ، وكان للسلاطين عمال يختارون لهم ما يناسبهم من الغلمان كما كان الأمراء والوزراء والقضاه يختارون من شاءوا منهم أناثا وذكورا فيذهبون بالنجباء منهم إلى المدارس يلقنونهم أصول الدين والعلم ثم يدربونهم على فنون الحرب وقيادة الجند .

دمر إمارة "البستان[1]" الواقعة تحت حمايتهم ، وحشد قواته في مواجهتهم وخاصة أنهم قاموا بإيواء الثائرين عليه ومنهم الأمير جم ابن السلطان محمد الثانى الذى كان يرى نفسه أحق من السلطان سليم بالحكم ، ورفضوا تسليم اللاجئين إليهم .

وبعد أن أرسل السلطان سليم الأول فى يونيو ١٥١٦م برسالة مهينة إلى السلطان قنصوة الغورى يطالبه فيها بأن يلاقيه عند مرج دابق ، أخذ الغورى فى الاستعداد لملاقاة العثمانيين ، وطلب من مماليكه الاستعداد للمعركة ومن قوله فى هذه الشأن "والذى منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراءكم التفاتة إذا سافرتم فى التجريدة[2]" كما طلب من الخليفة العباسى فى مصر محمد المتوكل الاستعداد للسفر معه .

ومضى الغورى على رأس جيشه إلى بلاد الشام ، وأناب عنه طومان باى فى مصر ، ووصل الغورى إلى حلب فى يوليو ١٥١٦م ، وحدث قتال شديد بين الطرفين انهزم فيه العثمانيون فى بداية الأمر لدرجة أن هم السلطان سليم بالهرب وخاصة بعد أن قتل من عساكره ما يزيد عن عشرة آلاف[3] ولكن سرعان ما لعبت الخيانة دورها فقد أطلق "خاير بك" نائب حلب – الذى استطاع السلطان العثمانى رشوته وضمه إلى صفوفه– بعض الشائعات بين صفوف المماليك بهدف إحداث الفرقة بينهم ومنها أن السلطان المملوكى أبعد مماليكه الجلبان عن قلب المعركة ، وترك لجنود القرانصة وقودا للحرب ومنها أن السلطان الغورى قتل فى أثناء المعركة فتبلبلت الأفكار ، وشاع الذعر فى صفوف المماليك لدرجة أن اضطربت أحوالهم وأخذ بعضهم فى الفرار ، ولم ينجح الغورى فى السيطرة على الموقف وأفلت منه الزمام ونتيجة لعدم تحمله لصدمة الهزيمة انقلب من فوق جواده على الأرض فاقد الوعى[4] وداسته سنابك خيول العثمانيين المندفعة وراء المماليك المتقهقرين ، فلما رأى ذلك أمراؤه القريبون منه خشوا أن يقع فى أسر العثمانيين فيفصلوا رأسه عن جسده ، ويطوفوا بها فى بلادهم فقرروا قتله بأنفسهم فقطعوا رأسه ورموها فى جب وأخذوا جثته وألقوها فى نهر قريب[5] .

١– لهذه الإمارة أسماء أخرى منها ذو القادر .

٢– للتفاصيل انظر ابن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٣ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق الطبعة الأولى ١٣١٢هـ ص٥ .

٣– ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص٤٧ .

٤– ابن زنبل : تاريخ السلطان سليم مع قانصوه الغورى ، جزءان ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨ .

٥– ابن زنبل : ص ٥٠ .

وانتهت معركة مرج دابق التى لم تستمر سوى يوم واحد وذهب ضحيتها الألوف من الطرفين بتغيير الأوضاع فى العالم الإسلامى فاستولى العثمانيون على بلاد الشام وبدأوا فى التأهب للسيطرة على مصر .

ويرجع أسباب هذا الانتصار إلى عوامل عدة من أهمها :

١- تفوق القوات العثمانية فى سلاح المدفعية الذى لا يمتلكه المماليك .

٢- خيانة خاير بك نائب السلطان الغورى فى حلب .

٣- الوقيعة بين المماليك الجلبان والقرانصة عند احتدام المعارك .

وقد دخل السلطان سليم حلب دون مقاومة ، فأمن أهلها على أرواحهم وأولادهم وأموالهم[١] ، كما دخل دمشق وغيرها من المدن السورية .

وعادت فلول الجيش المملوكى إلى مصر وهم فى أسوأ حال فكانوا ممزقى الثياب، نحيلى الأجسام . وبعد أن وصل نبأ الهزيمة إلى القاهرة اجتمع المماليك لاختيار سلطان جديد يتولى أمور البلاد . واستقرت أمور البلاد فى النهاية على اختيار "طومان باى" . ولما تردد طومان باى فى الأمر خشية الغدر به قام الأمراء بالقسم على المصحف بألا يغدروا به أو يثيروا فتنا ضده[٢] .

وبعد أن علم "طومان باى" بزحف السلطان سليم على مصر ، ووصوله إلى غزة نادى المماليك بالخروج من غير تأخر ، فخرج العسكر مسرعين ، ووقعت معارك عنيفة انكسر فيها المماليك ثم أخذ طومان باى فى إعادة تجميع صفوفه عند الريدانية (بالقرب من العباسية) . ولما أقبلت العساكر العثمانية التقى معها المماليك فى معركة مهولة انتهت بهزيمتهم وانكسارهم[٣] .

ودخل العثمانيون القاهرة بالسيف عنوة فى يوم الجمعة الموافق ٢٣ من يناير١٥١٧م وخطب للسلطان سليم على منابرها . مع ذلك لم يستسلم طومان باى فقد أخذ يعد العدة للمقاومة واشتبك مع العثمانيين فى عدة معارك ولما لم يتمكن من الظفر بهم احتمى عند أحد مشايخ العربان ولكن الشيخ الذى احتمى عنده تنكر له وسلمه للسلطان سليم فأمر بإعدامه .

١- القرمانى : أخبار الدول وآثار الدول ، القاهرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢٦ ص٩٩ .

٢- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص٦٩ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص٩٧ .

ويذكر ابن إياس ان طومان باى طلب من الناس فى أثناء ذهابه إلى المشنقة أن يقرأوا عليه "الفاتحة ثلاث مرات ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلى اعمل شغلك ... فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف(١)" .

وباعدام طومان باى انتهت سلطنة المماليك على مصر ، كما انتهت من قبل على الشام بمقتل الغورى ، وخضعت البلاد حوالى أربعة قرون تحت السيادة العثمانية .

أما عن الحجاز فقد خضعت سلما للعثمانيين . فقد أرسل الشريف بركات ابنه أبانمى إلى السلطان سليم بالقاهرة ليهنئه بانتصاراته على المماليك وحكم مصر وليعلن الولاء للعثمانيين فثبته السلطان سليم على شرافة مكة ، وجعله المتصرف فى أمرها ، كما أضاف إليه أمور الحسبة بمكة أيضا(٢) .

نظام الحكم العثمانى فى العالم العربى

ارتكز نظام الحكم العثمانى فى العالم العربى على أربعة أمور أساسية هى :

١- الإبقاء على أحوال العالم العربى الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والتركيبة السكانية كما هى قبل الفتح العثمانى لها ، فلم تحاول الدولة العثمانية مثلا صبغ أهل الولايات العربية التابعة لها بالصبغة العثمانية أو بربطهم برباط الحضارة العثمانية(٣) ، كما لم تحاول فرض اللغة التركية عليهم بدلا من العربية .

٢- عزل العالم العربى عزلا يكاد يكون تاما عن التيارات الاقتصادية والسياسية العالمية بحيث لا يتأثر بما يدور فى العالم الخارجى .

٣- كان المجتمع فى نظر العثمانيين عبارة عن قسمين : الأتراك وهم الحكام الذين يتمتعون بكافة الامتيازات ، والرعية وهم المحكومون الذين يتحتم عليهم خدمة الحكام والاستجابة لمطالبهم .

١- ابن اياس : المصدر السابق ص١١٥ .

٢- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص١٢٤-١٢٦ .

٣- محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص٦ .

وقد أدى انعزال الطبقة الحاكمة التركية عن الأهالى وتعالى أفرادها عليهم إلى ضآلة تأثير الحكم العثمانى[1] .

٤- ان فكرة الحكم عند العثمانيين كانت ترتكز على أن للدولة وظائف محددة ، ومسئوليتها لا تخرج عن المحافظة على سيادتها ومصالحها فى هذه الولايات أما عن الخدمات العامة مثل التعليم والصحة فانها لا تدخل ضمن مسئوليتها أو اختصاصاتها ، ومن هنا تحددت مهام الدولة العثمانية فيما يلى :

١- الدفاع عن الولايات التابعة للدولة وحفظ الأمن فيها .

٢- جمع الأموال وإنشاء إدارة مالية خاصة بذلك .

٣- إقامة نظام قضائى للفصل فى المنازعات التى تحدث بين الأهالى .

وعلى هذا النحو ارتكزت فلسفة الحكم العثمانى على عدة أنظمة كان أهمها : الوالى – الديوان – الحامية العثمانية – العصبيات المحلية[2] ، وفيما يلى نعرض لذلك :

أولا : الوالى :-

كان السلطان العثمانى يعين الوالى بصفته نائبا له فى الولاية التى يحكمها وكان يلقب بعدة ألقاب منها لقب الباشا وقد وكلت إليه السلطتان المدنية والعسكرية ومسئولية جمع الضرائب ، فكان على رأس الجهاز الادارى وكان يقود الجيوش بنفسه[3] ، ويبلغ الرعايا بأوامر السلطان ويقوم بارسال المقررات المفروضة على ولايته إلى الخزانة السلطانية ، ومع كل ذلك فانه نظرا لشكوك السلاطين فى ولاتهم وعدم الثقة فيهم وخشيتهم من الانفصال بولاياتهم عن الدولة العثمانية ، فقد أحاط السلاطين الولاة بجواسيسهم وعمالهم ، وأخذوا ينتزعون منهم العديد من اختصاصاتهم ، فتركزت النواحى المالية فى يد الدفتردار الذى كان يعين رأسا من القسطنطينية ، وتركزت النواحى الادارية فى يد الكتخدا أو الكخيا الذى كان تعيينه يتم بالقسطنطينية ، وكانت السلطة القضائية ينفرد بها قاضى القضاة الحنفى الذى كانت ترسله القسطنطينية ، وإلى جانب

١- محمد أنيس : حضارة مصر الحديثة ص١٤٤ .

٢- محمد عبد المنعم الراقد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٦٨ ص٢٦٨ .

٣- أميرة المداح: العثمانيون والامام القاسم محمد فى اليمن ، جدة ، مكتبة تهامة ١٩٨٢ ص١٤٨ .

مهمته الرئيسية مراقبة قرارات الوالى والنظر فى الشئون الاقتصادية والادارية ، وتنظيم شئون القوات العسكرية .

ونتيجة لخشية الدولة العثمانية من تمرد ولاتها عليها والاستقلال بولاياتهم جعلت من أعضاء الديوان عيونا لها على الولاة يبلغونها بتصرفاتهم لمنع الولاة من إساءة استعمال سلطتهم .

ثالثا : الحامية العثمانية : –

هى قوة عسكرية عثمانية كانت ترابط فى الولايات وقد أسست هذه الحاميات فى أعقاب الفتوحات العثمانية للوطن العربى ، فبعد أن فتح السلطان سليم الأول مصر ترك بها حامية تتألف من حوالى اثنى عشر ألف جندى يتكون منها ستة أوجاقات على رأس كل منها أغا ، وكانت هذه الحامية تتكون من أخلاط مختلفة من العسكر(١) .

وكانت مهمة الحاميات : حفظ النظام والدفاع عن الولايات ضد أى خطر خارجى، وقمع العربان . كما كان لها اختصاصات سياسية وادارية ؛ فكان رؤساؤها يشاركون الوالى فى الحكم كما كانوا يحضرون اجتماعات الديوان ، وكانت لهم الكلمة المسموعة . وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بتوصيل الخراج إلى الآستانة وكثيرا ما حدثت الخلافات بينهم وبين الوالى ، وكان التفوق فى الفترة الأولى من الحكم العثمانى للوالى ، ثم استطاع رجال الحامية بعد ذلك أن يسيطروا على زمام الأمور .

وعندما دب الضعف فى الدولة العثمانية ضعفت الحاميات فى الولايات وفسد أمرها، ولم تعد صالحة لاستتباب الأمن ، بل تحول أفرادها إلى السلب والنهب والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن الحامية فى بلاد الشام كانت من أهم أدوات التخريب ، فقد خرج جنودها عن اختصاصاتهم وكثر اعتداؤهم على الأهالى وتطاولوا على أموالهم وأعراضهم وكثرت شرورهم(٢) .

وفى عدن ثار الأهالى ضد تسلط الحامية العثمانية وغدرها بأميرهم عامر الطاهرى، فاضطرت الآستانة إلى أن ترسل أسطولا بحريا لم يتمكن من السيطرة على الموقف إلا بصعوبة (٣).

١- للتفاصيل انظر الراقد : المرجع السابق ص٢٧٦-٢٧٧ .

٢- محمد كرد على : المرجع السابق ص٢٢٥ .

٣- فاروق أباظة: الحكم العثمانى فى اليمن ، بيروت ، دار العودة ١٩٧٩ ص٢٠ .

وفى تونس أعلن الجنود عصيانهم ، وهددوا النظام باعتدائهم على الأرواح والممتلكات .

وفى مصر ركنت الحامية العثمانية إلى حياة الاستقرار واندمجت فى الشعب المصرى ، وتركت حياتها العسكرية لدرجة أن الحملة الفرنسية حينما هاجمت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر لم تجد من يتصدى لها سوى المماليك وجموع الشعب المصرى(١) .

رابعا : العصبيات المحلية : -

كان هدف العثمانيين من إشراك العصبيات المحلية فى الحكم هو الاستفادة منهم فى إدارة الولايات التى يحكمونها وحتى يظلوا على ولائهم للدولة العثمانية ولا يقوموا بالتمرد عليها. ونتيجة لذلك شارك المماليك فى تولى مقاليد بعض الأمور فى مصر ، كما شاركت بعض العشائر العربية فى الشرقية والبحيرة فى حكم المناطق التى تقطنها ، واعترف السلطان العثمانى بالعصبيات الكردية وأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة فى شمال العراق ، كما ترك لمشايخ العراق سلطة إدارة عشائرهم ، ومن أهم هذه المشيخات مشيخات الخزاعل والعبيد وشمر والمنتفق(٢) .

والسؤال المطروح هو هل ظلت هذه العصبيات على ولائها للدولة العثمانية أو تحينت الفرص للتخلص من الحكم العثمانى واستقلالها عنه ؟

الواقع أن هذه العصبيات كانت غالبا ما تتطلع إلى استرجاع نفوذها القديم ، ومن هنا أخذت فى استغلال فرص انشغال الدولة العثمانية بمشكلاتها الخارجية والداخلية ؛ ففى مصر استطاع على بك الكبير المملوكى القيام بثورة ضد الدولة العثمانية فى عام ١٧٧١م والانفصال عنها ، ولم يستطع العثمانيون السيطرة على زمام الموقف إلا بعد الوقيعة التى دبروها بين على بك وقائده محمد أبو الذهب .

وفى اليمن استطاعت العصبيات المحلية القيام بثورات متعددة ضد الحكم العثمانى ، تمكنت خلالها من انهاك جيوش الدولة العثمانية حتى اضطرتها إلى الجلاء عن اليمن لفترة(٣) .

١- الراقد : المرجع السابق ص٢٧٨-٢٨٠ .

٢- عبد العزيز نوار : داود باشا والى بغداد ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦١ ص١١.

٣- للتفاصيل انظر : فاروق أباظة : المرجع السابق ص٤١٥ .

وفى وسط الجزيرة العربية قامت الدعوة السلفية التى دعت إلى العودة بالإسلام إلى مبادئه الأولى وألقت بتهمة نشر البدع والخرافات فى العالم الإسلامى على العثمانيين.

وفى العراق قامت العصبيات المحلية بالعديد من الثورات ضد الحكم العثمانى مثل ثورة آل مهنا فى جنوب العراق وآل شعيب فى البصرة ، والعشائر الكردية فى كردستان[1].

وفى الشام قامت أسرة آل العظم ، وظاهر العمر بمحاولات للاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية فى استنبول .

ومع كل ذلك فإن خروج هذه العصبيات المحلية على السلطنة لم تقلق الدولة العثمانية كثيرا وخاصة أنها كانت تستطيع الانتظار حتى تحين الفرصة المناسبة فتستعيد نفوذها وعلى سبيل المثال نذكر على بك الكبير وظاهر العمر اللذين استغلا فرصة انشغال العثمانيين فى حروبهم مع الروسيا ونجحا فى الانفصال عن الدولة ورفع راية العصيان ضدها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ثم ما لبثت الدولة أن استرجعت نفوذها على المناطق التى كانوا يحكمونها بعد انتهائها من الحرب .

أحوال العالم العربى فى ظل الحكم العثمانى

بعد أن سيطرت الدولة العثمانية على العالم العربى فى معظمه ، وصارت الدولة الإسلامية الوحيدة فى المنطقة تقريبا ، تحول االعالم العربى إلى منعطف جديد فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفيما يلى نعرض لذلك .

١- نوار : المرجع السابق ص٦٨-٦٩ .

أولا : الأحوال السياسية :

١ - انتقال مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة :

بعد هزيمة المماليك أمام العثمانيين انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة[١]، واتخذ السلطان سليم الأول لقب الخليفة ليضمن ولاء العرب والمسلمين له على اعتبار أن الخليفة هو فى الواقع خليفة رسول الله وانه يجب على المسلمين طاعته .

٢ - العثمانيون والأماكن المقدسة :

أضفت الدولة العثمانية حمايتها على الأماكن المقدسة لما لها من أهمية دينية ، وحمل السلطان العثمانى ألقاب حامى حمى الحرمين الشريفين ، وخادم الحرمين الشريفين، وهو لقب يكسب من يحمله احترام المسلمين وتقديرهم[٢] ، وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليبلغ السلطان العثمانى ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز ، وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الدينى[٣] . ولحماية الأماكن الإسلامية المقدسة من أخطار البرتغاليين الذين حاولوا أكثر من مرة النيل منها أغلق العثمانيون البحر الأحمر ، وحولوه إلى بحيرة إسلامية[٤] .

٣ - عدم إشراك العناصر العربية فى حكم بلادها :

ركزت الدولة العثمانية سياستها على أن يبقى العالم العربى فى حوزتها أطول مدة ممكنة ، ولذلك لم يسمحوا للعناصر العربية فى حكم بلادها ، بل قاموا بنشر عوامل الصراع بينها حتى تنشغل عن التفكير فى السلطة يضاف إلى ذلك أن الحكم العثمانى كان مركزيا ، فكان السلطان هو السلطة العليا المسيطرة على كافة الأجهزة السياسية والادارية والعسكرية ، وكان السلاطين يرون أن الولايات العربية وما عليها هى من أملاكهم الخاصة ، ولهم حق التصرف فيها على أية صورة ، ولم يكن يهم الدولة سوى جمع الأموال والحاصلات التى صارت نهبا لها ولأتباعها[٥] .

١- الراقد : المرجع السابق ص٢١١-٢١٤ .

٢- الراقد : المرجع السابق ص٢٢٨-٢٢٩ .

٣- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ص٦٦ .

٤- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص١٤٤ .

٥- الراقد : المرجع السابق ص٢٦١-٢٦٥ .

٤ – عدم إشراك العرب فى الدفاع عن بلادهم :

بعد الفتح العثمانى للعالم العربى صار الدفاع عن الولايات العربية ضد أية اعتداءات خارجية من اختصاص القوات العثمانية فأفقد ذلك المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم على حماية بلادهم(١) .

ثانيا : الأحوال الاقتصادية :

أبقى العثمانيون النظم الاقتصادية القائمة على النظام الاقطاعى قبل حكمهم الولايات العربية كما هى .

وقد عنى السلطان سليم الأول بمسح الأراضى فى مصر والشام ، وخصص مقدارا منها للأجناد ومقدارا لنفقات الوالى ومقدارا للسناجق وما عدا ذلك سمى بالأراضى الديوانية أى التابعة للديوان الأعظم بالآستانة . وقد عد السلطان العثمانى نفسه مالكا لكل الأراضى الزراعية ، ورأى أن أصحاب الأراضى لا يملكونها بل لهم حق الانتفاع بها فقط، ونتيجة لذلك أصبحت الأراضى تؤول عند موت صاحبها إلى الدولة ، إلا أن ورثته يستطيعون ردها إلى حوزتهم إذا دفعوا مبلغا من المال للدولة . غير أن ذلك الوضع أخذ يتبدل بمرور الزمن وبخاصة بعد ازدياد نفوذ بكوات المماليك ، وتمكنهم من تقسيم معظم الأراضى فى مصر بينهم فآلت إليهم ملكية ثلث ما يزرع من الأرض ، ووزع الباقى بين الفلاحين والملتزمين والأوقاف(٢) .

وقد قام العثمانيون باتباع طريقة المماليك فى تحصيل الأموال على الأراضى ، باتباع نظام الالتزام بالمزايدة ، وذلك بأن يتعهد الملتزم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض على أن يحصل من الفلاحين العاملين فى هذه الأرض كل ما يستطيع من أموال ، وإذا هرب الفلاح وقت تحصيل الضرائب تصدر ضده عقوبات صارمة . وقد استخدم الولاة سلطاتهم لجمع كل ما يمكن جمعه من الأموال دون الاهتمام بأى اصلاح اقتصادى ، فأدى ذلك إلى تدهور الزراعة والتجارة والصناعة وزاد الطين بلة تحول طرق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح .

١– أنيس : المرجع السابق ص١٤٥ .

٢– عمر عبد العزيز : دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، الاسكندرية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٥٤.

ثالثا : الأحوال الاجتماعية :

نظر العثمانيون إلى المجتمع على أنه ينقسم إلى قسمين : الحكام وهم الأتراك ، والمحكومين وهم الرعية ، وواجب القسم الثانى أن يعمل فى خدمة القسم الأول لإمداده بما يحتاج إليه ، وبعبارة أخرى كان الأتراك يكونون داخل المجتمعات العربية طبقة أرستقراطية عزلت نفسها عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحساسها بذاتيتها، فكان الحكم العثمانى عديم التأثير فى حياة الأهالى(١) ، وخاصة أن العثمانيين لم يشاركوا العرب فى حياتهم الاجتماعية العامة ، ولم يهتموا باللغة العربية وبانعاش آدابها وعلومها ، كما لم يهتموا بعثمنة البلاد فاحتفظ العالم العربى ببنائه الاجتماعى الذى كان سائدا فيه قبل الحكم العثمانى ، فاحتفظت الطوائف الدينية الإسلامية باحترامها ، بصفتهم حماة الشريعة ، وقد نجحت هذه الطبقة فى رد المظالم ، وكانت بمثابة حلقة الوصل بين الطبقة الحاكمة والمحكومة ، كما احتفظت الطبقات المنتجة من التجار والفلاحين وأصحاب الحرف بسماتها السابقة ، فكان لكل طائفة شيخ تخضع لسلطته وينوب عنها لدى السلطات الحكومية ويتولى شئونها ويدافع عنها ويقوم بحل المنازعات بين أفرادها ، ويعاقب كل من يخالف منهم عرف وتقاليد الطائفة عقوبات صارمة ، وكان منصب الشيخ وراثيا وكان لمشايخ الطوائف وكلاء يعرفون باسم النقباء(٢) . أما فى الريف فكان شيخ القرية يقوم مقام شيخ الطائفة وكان الابن يرث أباه فى مهنته سواء كان الأب فلاحا أو تاجرا أو صانعا ، أما البنت فتتزوج زميل والدها فى الحرفة وقد أدى ذلك إلى تقوية الرابطة الاجتماعية وتوثيقها(٣) .

أما أهل الذمة فقد ظلوا على هامش الحياة الفكرية والسياسية فى داخل المجتمع العربى وإن كانت لهم مشاركات فى الحياة الاقتصادية بطريقة فعالة .

وعند تقييمنا للحكم العثمانى فى الوطن العربى يتضح ما يلى :

١ – أن الحكم العثمانى كان ضعيفا فى تأثيره على العالم العربى على الرغم من طول مدته التى تجاوزت أربعة قرون ، فلم ينجح العثمانيون فى عثمنة مصر ، بل ما حدث هو أن تمصر العثمانيون وأصبحوا جزءا من الحياة المصرية(٤) .

١– محمد أنيس : المرجع السابق ص١٤٩ .
٢– عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٥٦ .
٣– أنيس : المرجع السابق ص١٤٩–١٥٠ .
٤– نفسه ص١٤٤ .

٢ – أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ظلت جامدة وتدهورت الزراعة نتيجة لعدم الاهتمام بمرافقها ، وتدهورت الصناعة وانحصرت فى بعض صناعات بدائية ، كما تدهورت التجارة بسبب اضطراب الأمن ، وسوء طرق النقل ، وضعف القوة الشرائية[1].

٣ – أن الحكم العثمانى كان يستند فى المقام الأول على رجال الدين الذين وقفوا بجانب الدولة العثمانية للاحتفاظ بنفوذها فى الولايات العربية حيث كانوا يصرون على ضرورة الولاء العام للسلطان باعتباره حامى حمى الإسلام .

٤ – ظهور المحلية : أى إن الأفراد كانوا يقومون بتنظيم أمور حياتهم بعيدا عن تدخل الدولة أو أشرافها ففى المدن كان الناس يقسمون إلى طوائف حسب مهنهم ووظائفهم الاجتماعية ، فالطائفة كانت تضم أصحاب المهنة الواحدة وعلى رأسها شيخ يتولى تنظيم شئونها والفصل فى الخصومات بينها وبين الحكومة ، وفى الريف كانت كل قرية تمثل مجتمعا قائما بذاته يكاد يكون معزولا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرى الأخرى وبعبارة أخرى ان نظام الحكم العثمانى تميز بضعف التدخل الحكومى ، وترك الأهالى وشأنهم فى كل ما يتعلق بأمورهم[2] ، وقد أدى ذلك فى نهاية الأمر إلى عدم ولاء الفرد للدولة[3] .

٥ – نجحت الدولة العثمانية فى وقف الأطماع الأوربية فى الوطن العربى لفترة من الوقت ، فقد أوقفت الخطر البرتغالى على البلدان العربية ، ولاحقت فرسان القديس يوحنا وتمكنت من طردهم من ليبيا ، كما كسرت شوكة الأسبان فى غرب حوض البحر المتوسط .

٦ – أعتاد العثمانيون الأخذ ولم يعتادوا العطاء . فلم يهتموا بتحسين أحوال الولايات ، لذلك كان يندر أن يصل من الأستانة رجل صالح فى أخلاقه معروف باستقامته وسعة معرفته يحسن إدارة الأمور ، ويوقف الظالم عن ظلمه[4] .

١- د. حسين خلاف: التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ص٧ .

٢- محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ص٢٣ .

٣- محمد أنيس : المرجع السابق ص٥ .

٤- محمد كرد على : المرجع السابق جـ٢ ، ص٢٦٧ .

الموضوع الخامس

الحركات الإنفصالية ضد الدولة العثمانية

أ - فى مصــر : حركة على بك الكبير
ب - فى بلاد الشام : ١- حركة ظاهر العمر
٢- حركة أحمد باشا الجزار

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية فى منتصف القرن الثامن عشر وبخاصة فى الفترة التى قامت فيها حركة على بك الكبير تبين لنا مدى الضعف الذى لحق بالدولة العثمانية من جراء الضربات التى انهالت عليها من الدول الأوربية وبخاصة الروسيا ، فأوهن ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركة على بك الكبير والتى من أهمها حركة ظاهر العمر فى فلسطين ، وحركة الأكراد فى شمال العراق والشام ، والثورات فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود والافلاق والبغدان[1] ، والنزاع بين الأشراف على إمارة مكة . ونتيجة لذلك أخذ بكوات المماليك فى مصر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق سلطة الباشا العثمانى ، وأصبح لزعيمهم الذى كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة فى البلاد ، وفى النهاية استغل أحدهم وهو على بك الكبير الفرصة وتمكن من الانفراد بالسلطة فى مصر فى عام ١٧٦٦.

١ - حركة على بك الكبير :

وقبل أن نتناول حركة على بك الكبير بالدراسة لابد لنا من وقفة نعرض فيها لنشأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر .

الاسم الحقيقى لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولد فى عام ١٧٢٨ فى بلده

١- محمد رفعت رمضان: على بك الكبير، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص٥ .

أبازة من أعمال القوقاز العثماني ، وكان والده واحد من قساوسة الكنيسة اليونانية ، ويرغب في أن يكون ابنه مثله قسيسا ، ولكن القدر لم يمكنه من ذلك وخاصة بعد أن اختطفت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن في اثناء رحلة صيد كان يقوم بها في إحدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فسافر به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرك الاسكندرية ، وقد قام مدير الجمرك باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك في مصر(١) وقد اعتنق يوسف الإسلام ، وتسمى باسم على ، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة في ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقى فاكتسب لقب "جن على" ولما بلغ الثامنة عشرة أعتقه أستاذه وولاه سنجقا ، ثم زادت شهرته بعد نجاحه في الضرب على أيدى البدو الذين كانوا يغيرون على القاهرة ليلا ، فقربه سيده وجعله كاشفا(٢) وواصل على بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلد ، وخلال ذلك أخذ على بك في التودد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفي الوقت نفسه نشط في وضع أتباعه في المناصب الهامة(٣) ، كما نجح في تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق توريطهم في المشاركة في الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال .

كما نجح على بك الكبير في تركيز السلطتين الحربية والادارية في يده وبخاصة بعد نجاحه في كسر شوكة العربان في الوجهين البحرى والقبلى فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهابه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء(٤) . وانتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروبها في الروسيا(٥) ، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالى ثم تولى الحكم مكانه وأبطل ورود الولاة العثمانيين إلى مصر(٦) ، وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية ، وفي عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا في شكل العملة فجعل على أحد وجهيها اسم السلطان ، وعلى الوجه الآخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول ان على بك الكبير كان يرغب في الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا ، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة في ظل

١- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص١٨-١٩ .

٢- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة ، دار المعارف ص١٦ .

٣- الجبرتى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار جـ١ ، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرفية ص٣٨٤.

٤- ميخائيل شاروبيم : الكافى في تاريخ مصر القديم والحديث ص١٥١ .

٥- محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢٠ .

٦- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٤ .

السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمى الولايات الإسلامية من الأطماع الأوربية ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتى بقوله "اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح فقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ ، ثم أن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم دراهم وكسوة واستسمحه[1] .

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التى فرضتها عليه المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم باقرار الأمن فى البلاد وتنظيم الادارة،كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا ، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة . فاستجاب القائد الروسى لطلبه بغية إنهاك الدولة العثمانية فى حروب داخلية ، واضعاف قدرتها العسكرية ضد الروسيا[2] ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك ، وافتئاته على حقوق العثمانيين فان انشغال السلطان العثمانى بأمور الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى التخلص من على بك [3] ، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر .

ونتيجة لاختلال أحوال الحجاز فى تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الأحمر وشواطئ الهند[4] ، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة ، هذا بالإضافة إلى إحرازه للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين[5] .

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة

١- الجبرتى : المصدر السابق جـ٢ ، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف" .

٢- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٥٩ .

٣- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص٦٤ .

٤- Irwin, Eyles : Series of Adventures in the course of Avoyage up the Red Sea Dublin 1780 vol 1 p. 159 .

٥- شكرى : المرجع السابق ص٢١-٢٢ .

محمد بك أبو الذهب[1] إلى مكة ، وتمكن من الاستيلاء عليها فى عام ١٧٦٩ . وفى أعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين[2] فزاد ذلك من شهرته ، وقوة شوكته . وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المضى فى مشروعاته التوسعية ، فرأى ضرورة اخضاع بلاد الشام لسلطته ، وقد شجعه على ذلك ما يلى :

١ – اضطراب الأحوال فى سورية وثورة حليفه ظاهر العمر .

٢ – انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا ، وعدم تمكنها من إرسال النجدات العاجلة إلى بلاد الشام .

٣ – علاقات على بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة الروسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثمانى ، وظهور الأسطول الروسى فى البحر المتوسط .

٤ – تذمر أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة .

ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف على بلاد الشام.

وقد أحرز الجيش المملوكى عدة انتصارات متوالية ، فدخل أبو الذهب غزة فى مارس ١٧٧١ ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة ، وبدت بلاد الشام كلها تحت رحمته ، وخلال ذلك لقى أبو الذهب كل معاونة وتعضيد من الشيخ ظاهر العمر الذى ساعده بالنصح تارة وبالامدادات تارة أخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التقهقر ، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق[3] ودخلها فى السادس من يونيو ١٧٧١م ، وأتت إليه الوفود تهنئه وتزف إليه التهانى ، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات والزينات ، غير أن هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده ، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والانسحاب من دمشق ، كما نادى أهالى الشام بالأمان[4] وكر عائدا إلى مصر ، وسحب فى طريق

١– يرجع اطلاق اسم أبو الذهب على هذا المملوك إلى "أنه لما لبس الخلعة بالقلعة ، صار يفرق البقاشيش ذهبا ، وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء" . الجبرتى: المصدر السابق جـ١ ص٤٢٢.

٢– إبراهيم الطيب : مصباح السارى ونزهة القارى ص٢٣ .

٣– شكرى : المرجع السابق ص٢٤ .

٤– الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٥ .

عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد التى فتحها[1] . ويختلف المؤرخون فى أسباب ذلك وفيما يلى نعرض لآرائهم :

١ – اجتماع القائد العثمانى عثمان باشا بأبى الذهب فى خيمته واقناعه بأن ما قام به ضد السلطان العثمانى يخالف الشرف والأمانة ، كما أن استيلاءه على دمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢ – إرسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد أبى الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر[2] .

٣ – أن أبا الذهب حصل على وعد من السلطان العثمانى بالعفو عنه ، وتوليته شياخة البلد بدلا من على بك الكبير[3] .

٤ – أن أبا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع الروسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته فى بلاد الشام .

٥ – أن العثمانيين نجحوا فى إثارة النزعة الدينية عند أبى الذهب ، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنه يعصى الله ورسوله ، كما أثبتوا له أن اتصال على بك الكبير بالروس أعداء الإسلام وانسياقه وراء أفكار كاترين امبراطورة الروسيا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أنباء انقلاب أبى الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته ، ومع ذلك فقد أرسل على بك جيشا لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبى الذهب ، وعندئذ لم يجد على بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر فى عكا ، ومشاركته فى مواجهة العثمانيين فى بلاد الشام .

وفى بلاد الشام أعد على بك العدة للعودة إلى مصر ، فجمع حوالى خمسة آلاف جندى تقدم بهم لملاقاة أبى الذهب الذى أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثنى عشر ألفا[4] . وفى الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر أتباع على بك فى بداية الأمر ، وانفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة ، ولكن أبا االذهب لم يلبث أن أثار الحماس فى أتباعه متهما على بك بالكفر والالحاد ، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاخضاع البلاد حتى

١- محمد رفعت رمان : المرجع السابق ص١٦٩ .

٢- شكرى : المرجع السابق ص٢٧ .

٣- تاريخ جودت جـ١ ص٣٤٦-٣٤٧ .

٤- شكرى : المرجع السابق ص٢٨-٢٩ .

يقضى على الدين الإسلامى ويرغم الأهالى على اعتناق المسيحية ، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبى الذهب وتمكنوا من إحراز النصر على قوات على بك الذى ظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا ، وبقى فى الأسر سبعة أيام حتى مات فى الخامس عشر من صفر ١١٨٧هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣م ، وقد شكك الجبرتى فى طريقة موته ، فقال: "فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته[١]" .

وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانيـة واعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساندة العثمانيين ، ومعاضدة الباب العالى له حيث "راسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة[٢]" واعترف بسيادتهم على مصر ، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية فى الثامن من يونيو ١٧٧٥م أثناء محاربته لقوات ظاهر العمر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبى الذهب فمنهم من ذهب إلى أنه مات بداء السكتة القلبية ، ومنهم من قال إنه مات بمرض الحمى ، ومنهم من ذكر انه أصيب بمرض خبيث توفى على أثره نتيجة لأنه هدم ديرا للرهبان وقتل من فيه[٣] . وعلى كل حال فبعد وفاة أبى الذهب وقعت البلاد فى حالة من الفوضى فقد شرع كبار أمراء المماليك فى التنازع على السلطة وانقسموا إلى شيع وطوائف ، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وابراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما ، وفى عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءا فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن ، وانفلت زمام الأمور من يد العثمانيين[٤] . ولما خرجت الأمور عن حدودها وتدهورت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب فى مصر رهينة تصرفات مراد بك وابراهيم بك وأخذا فى ابتزاز قناصل الدول الأوربية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التى يطلبانها ، تقدمت الدول الأوربية بشكواها إلى الباب العالى فى عام ١٧٨٦ ، فأرسلت الدولة العثمانية أسطولا بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور[٥] ، والدخول إلى القاهرة فى أغسطس ١٧٨٦م والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة ، وظل الحال على هذه المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى يوليو من عام ١٧٩٨م .

١- الجبرتى : المرجع السابق جـ١ ص٣٨٥ . وانظر أيضا فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٣٠.
٢- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٤٢٣ .
٣- تاريخ الأمير حيدر : نزهة الزمان فى تاريخ جبل لبنان ، القاهرة ، مطبعة السلام ١٩٠٠م ص٨٢٤.
٤- Charles Roux : L' Angleterre de Suez, et l' Egypte PP. 20-21 .
٥- IBid : P. 195 .

ثانيا : الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية فى بلاد الشام :

قسمت بلاد الشام بعد سقوطها فى يد العثمانيين فى أعقاب موقعة مرج دابق ١٥١٦م إلى ثلاث إيالات هى :

١ – حلب وتشمل بلاد الشام الشمالية .

٢ – طرابلس وتشمل وسط الشام .

٣ – دمشق وتشمل معظم البلاد الجنوبية وفلسطين .

واستمر هذا التقسيم سائدا حتى عام ١٦٦٠م إذ استحدثت إيالة جديدة وهى صيدا لتشمل مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد حتى تتمكن الدولة من تقوية قبضتها على هذه المناطق[١] وفيما يلى نعرض لأهم الحركات الانفصالية فى هذه المناطق :

١ – حركة ظاهر العمر الزيدانى :

بعد أن اختار أهل طبرية وصفد ظاهر العمر حاكما عليهم فى عام ١٧٣٣م ، أخذ فى تنظيم أموره استعدادا للانفصال عن الدولة العثمانية . وقد استطاع ظاهر العمر أن يضم فى فترة قصيرة صيدا ويافا وحيفا ونابلس والرملة إلى حكمه ، ولما حاول باشوات الشام الوقوف فى وجهه أخفقوا فى مسعاهم فأدى ذلك إلى ازدياد نفوذه[٢] ورغبته فى التوسع . وخلال ذلك تمكن ظاهر العمر من الحصول على فرمان من السلطان العثمانى بحكمه لصيدا ، كما تمكن من الاستيلاء على عكا وبنى بها قلعة وسكن فيها وصارت له شهرة ذائعة وأخذت قوته فى التزايد وبخاصة بعد تحالفه مع على بك الكبير فى مصر .

ونتيجة لانشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا استأثر ظاهر العمر بحكم عكا فى الفترة ما بين ١٧٥٠–١٧٧٦م ولم تجرؤ الدولة على مناصبته العداء ، بل اضطرت إلى التساهل معه وأدى ذلك إلى تراخى نفوذها وتقوية مركزه ، فأخذ يبنى القلاع حول عكا ، ويقوى من استحكاماتها ، ويتخذ الوسائل الكفيلة التى تدعم نفوذه فى هذه المنطقة[٣] .

١– رأفت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٧٧م ص١٣٥ .

٢– من أبرز الأمثلة على ذلك حملة سليمان باشا والى دمشق إلى طبرية فى عام ١٧٣٣ .

انظر ميخائيل الدمشقى الخورى : تاريخ الشام ١٧٢٠–١٧٨٢ تحقيق أحمد غسان سبانو ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص٢٤ .

٣– فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢١ .

ونتيجة لتحالف ظاهر العمر مع على بك الكبير فى مصر ، أبدى كل منهما استعداده لنجدة الآخر فى حالة محاولة الدولة العثمانية الغدر بهما ، وقد أبدى على بك استعداده لنجدة ظاهر العمر ومساعدته ضد عثمان باشا والى الشام ، وأرسل إليه جيشا مكونا من أربعة آلاف جندى لمعاونته .

وعندما أرسل على بك جيشا بقيادة محمد بك أبى الذهب إلى الشام لمحاربة الدولة العثمانية آزره ظاهر العمر حتى تم له النصر ، ودخول دمشق إلا أن خيانة أبى الذهب لسيده قلبت الأمور رأسا على عقب وجعلت على بك يفر إلى فلسطين للاستنجاد بالشيخ ظاهر العمر فى محاولة لاستعادة مركزه فى مصر ، وعلى الرغم من تقديم ظاهر العمر المساعدات لنجدته فقد اندحرت قواته للمرة الثانية على أيدى أبى الذهب ، فأخذت العواصف تهب بشدة على حليفه ، وانتهى الأمر بالتدخل العثمانى المسلح والقضاء على ظاهر العمر فى عام ١٧٧٥م ، وقتل معظم أبنائه وعودة النفوذ العثمانى إلى هذه المنطقة، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فقد أدى انعدام السيطرة العثمانية على تلك المنطقة إلى ظهور أحمد باشا الجزار بحركة انفصالية أخرى فى محاولة لملء الفراغ السياسى فى تلك المنطقة فى الفترة ما بين ١٧٧٦-١٨٠٤م .

٢ - حركة أحمد باشا الجزار[1] ١٧٥٠-١٨٠٤م :

بدأ نجم أحمد باشا الجزار فى الظهور بعدما التحق بخدمة على بك الكبير فى مصر، إلا أنه ما لبث أن فكر فى الهرب من مصر خشية بطش سيده ، فتنكر فى زى المغاربة ، وتوجه إلى دمشق حيث عمل فى خدمة واليها فترة ، ثم اتجه إلى لبنان واتصل بالأمير يوسف الشهابى الذى أعجب بذكائه وقوة عزيمته وطموحه فأسند إليه ولاية بيروت التى كانت مهددة فى ذلك الوقت من قبل الأسطول الروسى[2] ، وقد تمكن الجزار من السيطرة على زمام الموقف فى بيروت لفترة ، إلا أن الأسطول الروسى سرعان ما

١- اسمه الحقيقى أحمد البوشناقى ، وأطلق عليه لقب الجزار لشدته وصرامته واسرافه فى القتل وسفك الدماء من أجل الوصول إلى الحكم والسيطرة والولاية .

للتفاصيل انظر الأمير أحمد حيدر الشهابى: لبنان فى عهد الشهابيين – تحقيق أسد رستم وفؤاد البستانى ، القسم الأول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣ ص٩٦ .

٢- محمد جميل بيهم : الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب ، القاهرة ، مطبعة البابى الحلبى ، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ص٥٦ .

هزم قواته هناك مما اضطره للرحيل إلى استنبول ، وهناك استطاع أن يظفر بلقبى الوزارة والباشوية ، وبمنصب ولاية صيدا وأن يبدأ مرحلة جديدة فى حياته كوال تابع للدولة العثمانية مباشرة . وبعد أن برزت قدرة الجزار فى السيطرة على زمام الموقف ، والقضاء على بقية الزيدانيين من أتباع ظاهر العمر ، منحته الدولة العثمانية عكا بالإضافة إلى صيدا ، فقام بتحصينها ، كما عمل على زيادة مماليكه وأنصاره . وخلال ذلك سعى الجزار للقضاء على أسرتى آل العظم والشهابيين[1] ، كما بلغ نفوذه شأوا عظيما لدرجة أن أصبح بمثابة الحاكم الفعلى لبلاد الشام .

وبعد أن سمع الجزار بتحرك قوات الحملة الفرنسية من مصر استعدادا للهجوم على الشام ، بدأ فى زيادة استحكاماته فى عكا ، وتجهيز مدافعه تحت إشراف عدد من الخبراء الأوربيين ، كما أوجد فيها حاميات عديدة تستمد مساعدتها بحرا من الأسطول الانجليزى بقيادة "سيدنى سميث" مما جعل عكا صعبة المنال أمام بونابرت وقواته وجعل رجالات الدولة العثمانية ينظرون إلى الجزار على أنه مطمح آمالهم فى النصر . ونتيجة لاستبسال الجزار وقواته فى الدفاع عن عكا ، وتفشى مرض الطاعون بين القوات الفرنسية اضطر نابليون إلى الانسحاب من أمام أسوار عكا والعودة إلى مصر مما زاد من هيبة الجزار وعزز من مكانته أمام الناس ، وجعله يظهر بمظهر الحاكم المطلق فى بلاد الشام ، ولما خشيت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذه أخذت تدبر له المكائد للقضاء عليه فتحالفت مع الأمير بشير الشهابى ضده ولكن الجزار فوت هذه الفرصة على أعدائه، وحاول أن تظل علاقاته وطيدة مع العثمانيين وكان مستعدا لاعلان ولائه للسلطان ، وظلت الأمور على حالها حتى توفى الجزار فى ١٢١٩هـ/ أبريل ١٨٠٤م وهو فى ذروة قوته وسلطانه .

١- للتفاصيل انظر الشهابى : المصدر السابق ص١٦٠-١٦٥ .

الموضوع السادس

السلطان عبد الحميد الثانى وفكرة الجامعة الإسلامية ١٨٧٦-١٩٠٩م

السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد هو السلطان الرابع والثلاثون والخليفة السادس والعشرون من خلفاء بنى عثمان . ولد فى عام ١٢٥٩هـ وبالتحديد فى ٢١ سبتمبرمن عام ١٨٤٣م ونشأ فى حياة مليئة بالكبت والحذر خصوصا وأن والده كان يكرهه ويفضل إخوته عليه[١] ، كما أن والدته قد توفيت ، وكان لا يزال فى الثامنة من عمره ، يضاف إلى ذلك أن خلع عمه عبد العزيز ثم انتحاره ثم خلع أخيه مراد الخامس قد زادا من حذره وتخوفه ولو كان من أقرب المقربين إليه . ونتيجة لفقدان عبد الحميد لوالدته فى الصغر عهد بحضانته إلى عجوز من نساء القصر، ثم إلى إحدى زوجات والده واسمها "برلستوخانم" حيث لم تكن تنجب أولادا فتبنته ، وأخذت فى تربيته .

ونظرا لكل هذه الأمور مال عبد الحميد إلى العزلة والانفراد بنفسه ، وكان يتهرب دوما من إخوته ولا يشاركهم فى ألعابهم ، وقضى أيام صباه بين الخصيان والعبيد والجوارى[٢] ، وقد تولى عبد الحميد أمور السلطنة فى ١٨ من شعبان ١٢٩٣هـ الموافق ٦ من سبتمبر ١٨٧٦م ، وكانت مدة حكمه اثنين وثلاثين (٣٢) عاما وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما ، وهو من السلاطين العثمانيين القلائل الذين عمروا كثيرا وحكموا طويلا حيث مات عبد الحميد فى العاشر من فبراير ١٩١٨م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عاما[٣] .

١- مؤلف تاريخى هام : عصر السلطان عبد الحميد ، وأثره فى الأقطار العربية ، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية ، جـ٣ ص ٦٥-٦٨ .

٢- الهلال : السنة السابعة عشرة من أكتوبر ١٩٠٨ إلى يوليو ١٩٠٩ ص٥١٥-٥١٨ .

٣- مؤلف تاريخى هام : ص٦٥ .

وقد واجهت السلطنة العثمانية فى عصر عبد الحميد أزمات متعددة استغلتها الدول الأوربية فى إثارة القلاقل ضدها خصوصا فى ولاياتها غير الإسلامية فحركت الفتن السياسية فى كريت وصربيا وبلغاريا ، كما بدأت توجه التهديدات للسلطنة وتطالبها بالمسارعة فى إجراء الإصلاحات يضاف إلى ذلك أن روسيا أخذت فى إشهار الحرب على السلطنة لإجبارها على تعديل معاهدة باريس بغية الحصول على مكاسب إقليمية جديدة لها(١) ، ورغبة منها فى تخليص نصارى البلقان من حكم المسلمين باعتبارها حامية الأرثوذكسية فى ذلك الوقت يضاف إلى ذلك رغبتها فى تحقيق حلمها التاريخى فى الوصول إلى المياه الدافئة(٢) كل ذلك أدى إلى تكوين تكتل مسيحى من "الروسيا" ورومانيا والجبل الأسود والصرب ضد الدولة العثمانية ، واتخذ الصراع بين الجانبين شكل الصراع الصليبى بين المسيحية والإسلام حيث ركز النصارى اهتمامهم على نسف الأحياء الإسلامية فى المناطق التى اقتحموها ، وعلى قتل سكانها وهتك أعراضهم ، وتخريب المساجد(٣) .

ونتيجة لذلك رأى السلطان عبد الحميد أن الوسيلة المثلى لمواجهة هذه الهجمات الصليبية هى جذب عواطف المسلمين إليه(٤) ، والعمل على كسب ولائهم فبدأ فى إحاطة نفسه بإطار من التقى والتقشف ، كما بدأ يقرب إليه الفقهاء ورجال الدين الإسلامى(٥) . يضاف إلى ذلك انه جنح إلى الاستفادة من منصبه كخليفة لتعزيز سلطته الدنيوية ، ودفع مؤامرات أوربا عن بلاده ومن هنا بدأ فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وتقريب مجموعة من علماء العرب وأشراف مكة إليه(٦) ، كما اعتمد على الداعية الإسلامى جمال الدين الأفغانى فى الترويج لهذه الدعوة على مستوى العالمين العربى والإسلامى ، هذا إلى جانب قيام نامق كمال بتهيئة الأذهان فى أوساط المتحدثين بالتركية .

١- محمد جميل بهيم: فلسفة الحكم العثمانى جـ٢ ، بيروت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص١٦١ .

٢- محمود صالح منسى: حركة اليقظة العربية فى الشرق الأسيوى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ص٧١ .

٣- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠م ص١٠٧٤-١٠٧٥ .

٤- مذكرات السلطان عبد الحميد: ترجمة وتعليق محمد حرب، القاهرة ، دار الأنصار ١٩٧٨ ص٧ .

٥- جورج انطونيوس: يقظة العرب، ترجمة أحمد حيدر الركابى ،دمشق، مطبعة الترقى ص٦٧ .

٦- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ، ص١٧٨-١٧٩ .

وأخذ السلطان على عاتقه تنفيذ الفكرة عمليا ، وقيادتها بصفته خليفة للمسلمين ، وعدها أعذب الآمال فى إنقاذ الدولة وإحيائها من جديد ، وخير سلاح يحارب به النفوذ الاستعمارى الغربى الزاحف على العالم الإسلامى(١) .

وقد اتسعت دلالات معنى الجامعة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لتشمل مفاهيم عدة ، فبعض المصلحين رأى فيها دعوة للرجوع بالدين إلى ما كان عليه السلف الصالح وآخرون فسروها على أنها دعوة لتحديث المفاهيم الإسلامية وتطويرها وتفسيرها بشكل يساير تطور الحياة الحديثة ، ويتمشى مع المفاهيم الواردة من مدنية الغرب وثقافته وقسم ثالث رأى فى حركة الجامعة الإسلامية دعوة إلى إحياء الخلافة القرشية من جديد ، لكن من غير أن يكون لهذا الخليفة سلطة دنيوية بل يكون مجرد رمز دينى لوحدة المسلمين(٢) ، ثم امتزجت هذه المفاهيم عندما دعا الأفغانى إلى جامعة إسلامية تقوم على دعائم أساسية تتركز فيما يلى :

١ – ضرورة التمسك بالخلافة كنظام دينى ، ونظام سياسى حتى يمكن مقاومة التيارات الأوربية التى اشتد ساعدها داخل بلاد المسلمين ، وتخليص العالم الإسلامى بعامة، وأقاليم شمالى إفريقية ، والشرقين الأدنى والأوسط بخاصة من السيطرة الأوربية المالية والسياسية والعسكرية(٣) .

٢ – إيجاد حد أدنى من التضامن السياسى بين المسلمين ، لاستعادة ما فقد من ديارهم والحفاظ على ما تبقى بأيديهم منها(٤) .

٣ – الحج إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة حيث الكعبة المشرفة لما فى ذلك من تربية دينية تؤصل العقيدة ، وتثبتها فى نفوس المسلمين فى كافة أنحاء المعمورة(٥) .

وقد اتخذ الأفغانى فى سبيل نشر أفكاره وسائل عدة كالخطابة والكتابة ، ومقابلة الحكام ، وتكوين الجمعيات ، وعانى فى سبيل ذلك الكثير من مرارة النفى ومظاهر التضييق ، وظل مناديا بفكرة الجامعة الإسلامية برغم كل الصعاب ، ودعا المسلمين إلى

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ، ص١١٩٩-١٢٠٠ .

٢- أحمد فهد الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الأردن ، الزرقاء ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٥ .

٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ، ١٩٨٣م ص١١٩٥-١١٩٦ .

٤- الشوابكة : المرجع السابق ص١٣٢ .

٥- الشناوى : المرجع السابق ص١١٩٥-١١٩٦ .

الوحدة الصحيحة جاعلين أمامهم الأعظم فى ذلك القرآن الكريم[1].

وفى الوقت الذى ظهرت فيه فكرة الجامعة الإسلامية ظهرت فى أركان الدولة العثمانية حركات أخرى لمناهضة هذه الفكرة فظهرت حركة الجامعة الصقلبية ، وحركة الجامعة الجرمانية ، ونتيجة لذلك عمل السلطان عبد الحميد على توحيد العناصر المتعددة فى الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم بهدف تكوين جبهة واحدة تستطيع الصمود أمام الأطماع الأجنبية ، فأحاط نفسه بمجموعة من الأكراد والأرنؤط وعنى بتربية أبناء العشائر تربية إسلامية ، كما رأى ضرورة امتداد أواصر الأخوة الإسلامية إلى كل مسلمى آسيا وافريقية سواء فى الصين أم الهند أم أواسط افريقيا أم غيرها[2] .

وعلى الرغم من أن هذه السياسة قد حققت بعض أهدافها واستطاعت أن تزعج بعض الدول الأوربية مثل بريطانيا وفرنسا ، وكلفتهما جهدا كبيرا فى سبيل مقاومتها ، وأدت إلى إحراج موقفيهما[3] ، فإن نجاح حركة الجامعة الإسلامية ظل مرهونا بتواجد السلطان عبد الحميد على العرش .

وحتى تزداد هيبة السلطان عبد الحميد الدينية بين المسلمين رأى ضرورة الاهتمام بتيسير أمور أداء فريضة الحج لهم عن طريق إنشاء خط حديدى بين دمشق والمدينة ، وقد قيل إن عزت باشا العابد - السورى الأصل والذى كان سكرتيرا ثانيا للسلطان عبد الحميد - هو الذى أدخل فى روع السلطان إمكانية تقوية الخلافة بهذا المشروع الذى يمكن أن يشد من قبضة الدولة على الأماكن المقدسة ، ويعززها بإذكاء شعور المسلمين فى مختلف أرجاء العالم هذا بالإضافة إلى تسهيل سفر الحجاج وتذليل ما يواجههم من صعوبات فى ذهابهم وإيابهم[4] .

١- عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص٢٤٢ .

٢- مذكرات السلطان عبد الحميد ص٧ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ، ص١٧٩-١٨١ .

٤- الشوابكة : المرجع السابق ص١٨١-١٨٦ .

وقد ظلت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تتأرجح صعودا وهبوطا وقوة وضعفا حتى حدثت ثورة تركيا الفتاة فى عام ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد ،فتعثرت حركة الجامعة الإسلامية فى مسيرتها[١] خصوصا بعد تعصب جماعة الاتحاد والترقى للحركة الطورانية، وانسياق الشريف حسين بن على وراء وعود بريطانيا بإقامة خلافة عربية ، وموقف المعارضة الشديد الذى اتخذه النصارى فى الولايات العربية ضد فكرة الجامعة الإسلامية[٢] .

١- لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى جـ١ - ترجمة عجاج نويهض ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م ص٣٠٥-٣٠٨ .

٢- الشناوى : المرجع السابق ص١٢٩٧-١٢٩٩ .

الموضوع السابع

الدولة العثمانية خلال الحرب الأولى وظهور أتاتورك

دخلت الدولة العثمانية غمار الحرب الأولى فى عام ١٩١٤م إلى جانب دول الوسط المكونة من ألمانيا والنمسا والمجر ضد دول الحلفاء المكونة من بريطانيا وفرنسا والروسيا وإيطاليا . ويرجع أسباب انضمام العثمانيين بجانب ألمانيا إلى ما يلى :

١ – إن صفحتهم كانت بيضاء مع العثمانيين بعكس بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا التى اقتلعت أجزاء من أراضى الدولة العثمانية ، ومزقت إمبراطوريتها[١] واستهدفت تمزيق أركانها ، وضرب الشعوب الإسلامية عَقَدِيًا واقتصاديا . فروسيا القيصرية كانت ترمى إلى تمزيق تركيا وتعمل على انتزاع مضيق الدردنيل الذى يربط البحر الأسود بالبحر المتوسط منها ، كما كانت تسعى للاستيلاء على استنبول . وبريطانيا كانت تعمل على انتزاع العراق وفلسطين من تركيا ، وتوطيد أقدامها فى مصر[٢] وفرنسا كانت تريد بجانب استيلائها على الجزائر وتونس ومراكش الاستيلاء على الشام ، أما إيطاليا فبعد استيلائها على ليبيا فإن تطلعاتها تجاه ممتلكات الدولة العثمانية لم تتوقف .

٢ – تزايد المصالح الألمانية داخل الدولة العثمانية بشكل كبير خلال العقود القليلة التى سبقت وقوع الحرب فكانت هناك قروض ألمانية ، وسكة حديد برلين بغداد التى يتولى الألمان تنفيذها ، كما كان تحديث الجيش الألمانى يتم على أيدى خبراء من الألمان

١- عمر الديراوى : الحرب العالمية الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ١٩٨٢ ص١٢٨ .

٢- هيئة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى : تاريخ الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى (حزب البلشفيك) ، بيروت ، منشورات الفارابى ، ١٩٥٤ ص٢٣٢ .

وبتسليح ألماني[1] مما هدد سيطرة إنجلترا على منطقة الشرق الأدنى .

٣ – عروض ألمانيا المتعددة لحل مشاكل الدولة العثمانية جعل العديد من أعضاء الوزارة العثمانية يميلون إليها ويرغبون في الوقوف بجانبها[2] .

٤ – إقحام أعضاء الاتحاد والترقي للدولة العثمانية في حرب ليس لها فيها ناقة ولا جمل .

ومع أن الحكومة الإنجليزية قد بذلت جهودها لضمان حياد تركيا خشية انضمامها إلى ألمانيا وذلك بتقديم التزامات تتضمن استقلالها وعدم تجزئتها[3] ، فإن الحزب الحاكم في تركيا كان يريد الانضمام إلى جانب ألمانيا .

ولكي تكسب الدولة العثمانية الوقت الذي يمكنها من الاستعداد لدخول الحرب بدأت في مماطلة الحلفاء في الرد على مطلبهم بخصوص الوقوف على الحياد في الحرب ، وعرضت عليهم شروطها كي لا تنضم إلى الألمان ومنها :

١ – إلغاء الامتيازات الأجنبية في أراضيها .

٢ – إعادة جزر الأرخبيل إلى السلطة العثمانية .

٣ – حل القضية المصرية .

٤ – وقوف بريطانيا وفرنسا ضد أطماع روسيا في الدولة العثمانية .

وبعد ثلاثة أيام من تقديم هذه الشروط جاء رد الحلفاء كما يلي :

١ – يرى الحلفاء إمكانية إلغاء الامتيازات الأجنبية عدا الامتيازات القضائية التي يكون في إلغائها مساس بحقوق الأجانب القاطنين في ممتلكات الدولة العثمانية .

٢ – يرى الحلفاء أن يترك طرح مناقشة قضية جزر الأرخبيل إلى وقت ملائم .

٣ – ترك حل القضية المصرية إلى ما بعد الحرب ، حتى يمكن حلها بطريقة مرضية لجميع الأطراف .

١– عبد العزيز نوار وعبد المجيد نعنعي : التاريخ المعاصر – أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٣ ، ص٤٤٣ .

٢ – المجموعة التاريخية المصورة : تاريخ الحرب العظمى ١٩١٤–١٩١٨م جـ٦ ، تصريح لطلعت باشا وزير الداخلية التركي تحت عنوان "موقف تركيا قبل إعلان الحرب" ص٢٢ .

٣– وليم لانجر : موسوعة تاريخ العالم – ترجمة محمد مصطفى زيادة جـ٧ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٩ ص٢٣٩٢–٢٣٩٣ .

٤ – تعهد الحلفاء بتأمين سلامة الدولة العثمانية وتأييد استقلالها[١] .

وعلى كل حال فبعد أن بدأت الدولة العثمانية فى استكمال استعداداتها حيث قامت بتعبئة نصف مليون جندى ، وتدريب حوالى ربع المليون[٢] ، أعلنت عن عزمها الاشتراك الفعلى فى الحرب إلى جانب دول الوسط ، كما أعلن السلطان العثمانى بصفته خليفة المسلمين الجهاد ضد الحلفاء فى كافة البلدان الإسلامية التى يسيطرون عليها ، وأصدر أوامره بمهاجمة الحلفاء فى الجبهات التالية :

١- الجبهة القوقازية الأناضولية .
٢- الجبهة البلقانية .
٣- جبهة الخليج العربى والعراق وفارس .
٤- جبهة قناة السويس والشام .
٥- جبهة اليمن[٣] .

وقد قام الأتراك فى بداية الحرب بأعمال حربية باهرة بمساندة الألمان[٤] فقام الأسطول التركى بضرب الموانى الروسية على البحر الأسود ، كما بدأت القوات التركية فى صد الزحف الروسى على القوقاز ، والتقدم نحو روسيا فى محاولة لتطويق جيشها[٥]، كما حاولت التقدم تجاه قناة السويس .

ثم تطورت الأمور فى ربيع عام ١٩١٥ فتجمدت الجبهة الألمانية الفرنسية بعد أن توقفت ألمانيا عن محاولتها للاستيلاء على الأراضى الفرنسية نتيجة لعدم التمكن من تحقيق أى انتصار فعلى ، كما تعرض الروس لانكسار شديد ، يضاف إلى ذلك قيام الإنجليز بتركيز ضرباتهم على الجبهة التركية ومحاولتهم احتلال شواطىء الدردنيل[٦] ، واستمر القتال هناك عدة أشهر ولكى يتمكن الحلفاء من وقف الدعوة إلى الجهاد التى أطلقها السلطان العثمانى ، وتشتيت شمل الصف الإسلامى قام الإنجليز بالاتصال

١- المجموعة التاريخية : المرجع السابق جـ٤ تحت عنوان "الحلفاء يسترضون تركيا" ص٢٠-٢١ .

٢- المجموعة التاريخية : المرجع السابق جـ٥ مقال تحت عنوان "المعارك الحربية فى القوقاز" .

٣- نوار ونعنعى : المرجع السابق ص٤٤٨ .

٤- كارل بروكلمان : الإسلام فى القرن التاسع عشر- ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ١٩٧٩م ص٦٠٣-٦٠٤ .

٥- المجموعة التاريخية : المرجع السابق جـ٥ مقال تحت عنوان "المعارك الحربية فى القوقاز" .

٦- أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم جـ١ ، القاهرة ، مطبعة الحلبى ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م ص٢١١ .

بالشريف حسين أمير مكة المكرمة ، وعرضوا عليه التعاون ضد الأتراك فى نظير وعودهم له بتخليص العرب من نير الحكم التركى[1] ، ونتيجة لذلك دخل الشريف حسين الحرب ضد الأتراك واستطاع الاستيلاء على معظم مدن الحجاز ، كما استطاعت جيوش الثورة العربية إحباط حملة تركية ألمانية اتجهت إلى الجزيرة العربية ، وحالت بينها وبين السيطرة على عدن[2] . أما عن جبهة العراق وفلسطين فقد كانت قدرات الأتراك على الصمود أمام الجيوش البريطانية محدودة ، خصوصا وأن الثورة العربية الكبرى كان لها أكبر الأثر فى الحد من قدرتهم على المواجهة حيث فصلت القوات التركية المتمركزة فى اليمن عن القوات الرئيسية فى الحجاز والشام وسقطت العقبة فى يد الإنجليز فى ٦ من يوليو ١٩١٧ ، والقدس فى ٩ من ديسمبر ١٩١٧م ثم تلى ذلك سقوط دمشق وبغداد[3] .

وعن جبهة الدردنيل فقد ظلت الحرب مستعرة ، ولم تكمل الغلبة لواحد من الطرفين ، وإن كان مصطفى كمال قد استطاع تملك زمام الموقف وتعبئة الروح المعنوية والقتالية لدى جنوده خصوصا بعد أن حل محل القائد الألمانى "ساندروس[4]" .

ونتيجة لخروج الدولة العثمانية من الحرب مكسورة الجناح ممزقة الأوصال فقد اتفق الحلفاء فى مؤتمر "سان ريمو" فى ابريل ١٩٢٠م على اقتسام البلدان العربية التابعة لتركيا فيما بينهم ، كما اتفقوا فى معاهدة "سيفر" على تقسيم أملاك الدولة العثمانية الأوربية فيما بينهم أيضا فأعطيت اليونان معظم أملاك الدولة العثمانية الأوربية عدا القسطنطينية وبحر مرمرة ، وجعلت القسطنطينية تحت وصاية لجنة دولية ، وأجبر السلطان العثمانى وحيد الدين على التوقيع على هذه المعاهدة[5] التى لو لو نفذت بنودها لكانت تركيا أثرا بعد عين مما جعل الرأى العام التركى يثور على السلطان وأدى إلى إبراز دور كمال أتاتورك ورجاله الذين تمكنوا من دحر القوات اليونانية وتفريق شملها ، يضاف إلى ذلك أن الانجليز الذين أرادوا أن يجعلوا من أتاتورك بطلا فى نظر الشعب التركى حتى يتمكن من القبض على زمام الأمور فى تركيا ويساعد على تحقيق مطالبهم انسحبوا فجأة وبطريقة مريبة من ساحل غاليبولى وتركت سفنهم الحربية مواقعها بسرعة

١- عبد العزيز نوار : تاريخ العرب المعاصر مصر والعراق ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٣ ص٨٥ .

٢- زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٥م ص٢٥٢ .

٣- نوار ونعنعى : المرجع السابق ص٤٦٩ .

٤- دراجبرت فون ميكوش : مصطفى كمال المثل الأعلى – ترجمة كامل مسيحه – بيروت ، المكتبة الأهلية ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م ص١٣٢–١٤٥ .

٥- نوار ونعنعى : المرجع السابق ص٤٩٠ .

مذهلة[1] مما أدى إلى استرداد الأتراك للعديد من المواقع وانتصار قوات أتاتورك[2] . ونتيجة لذلك بدأ نجم أتاتورك في البزوغ وبدأ الناس يتحدثون عن شجاعته وبطولته ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة لوزان ١٩٢٣م التي أبقت لتركيا الأناضول وأدرنة والقسطنطينية وأخرجت ما بيدها من البلدان العربية[3] .

وفى أعقاب ذلك أعلن مصطفى كمال فصل السلطنة عن الخلافة ثم قام بانقلاب ضد السلطان وحيد الدين ، وعزله بالقوة وأحل محله خليفة عثمانى آخر وهو السلطان عبد المجيد بن عبد العزيز فى عام ١٣٤٠هـ الموافق ١٧ من نوفمبر ١٩٢٢م ، وفى أعقاب ذلك بدأ التخطيط لإلغاء الخلافة وإعلان علمانية الدولة ، فقرر مصطفى كمال إعلان الجمهورية ، وتم اختياره رئيسا لها[4] . وفى عام ١٣٤١هـ الموافق أول مارس ١٩٢٤م قام مصطفى كمال بدعوة المجلس الوطنى ، وتقرر فيه طرد الخليفة وإلغاء الخلافة ، وفصل الدين عن الدولة ، والأخذ بالقانون المدنى السويسرى ليكون بديلا عن القانون الإسلامى فى الأحكام الشرعية[5] ، ونقل عاصمة الدولة إلى أنقره ، ونتيجة لذلك غادر السلطان عبد المجيد آخر خليفة عثمانى تركيا إلى سويسرا[6] ، كما ألغيت الوظائف الدينية والشرعية ، وأصبحت الأوقاف ملكا للدولة مما أثار موجة عنيفة من السخط والغضب فى كافة الأوساط الإسلامية .

وهكذا زالت الدولة العثمانية من الوجود ، وأصبحت أثرا بعد عين .

١- على حسون : الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامى ، الطبعة الأولى .

٢- دا جوبرت فون ميكوش : المرجع السابق ص١٣٧ .

٣- لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى - ترجمة عجاج نويهض ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ ص٣٢٦-٣٢٧ .

٤- محمد محمد توفيق : كمال أتاتورك ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٣٦ ص١٣٩ .

٥- محمود شاكر : مواطن الشعوب الإسلامية فى آسيا - تركيا ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ص٤٥

٦- محمد توفيق : المرجع السابق ص١٤٠ .

الدولة العثمانيـة ما لها وما عليها

من المعروف أن لكـل دولـة مزايـا تذكـر لهـا ، ومـآخذ تسـجل عليهـا وأن المـؤرخ الصـادق هـو بمثابـة القـاضى الـذى يحكـم بالحيثيـات وشـهادة الشـهود ، لذلـك فليـس مـن الموضوعية إغفال مزايا الدولة العثمانيـة والاقتصـار علـى تسـجيل عيوبهـا أو العكس بـل يجب على المؤرخ أن يتعرض للجانبين معا دون التحيز لهذا الجانب أو ذاك .

ومن المعروف أن تاريخ آل عثمان بما فيه من حسنات وسيئات هو فى الواقع يعد حلقة من تاريخ المسلمين ، كما يعد مرحلة طويلة مـن مراحـل تـاريخ العـرب الحديث ولا سيما فى الشرق الأدنى[1] . فلم ينظر العرب إلى الدولة العثمانية على أنها دولـة أجنبيـة أو مغتصبـة أو مستعمرة لبلادهـم إلا فـى بدايـة القـرن الحـالى ، خصوصـا وأن العثمـانيين مسلمون ، والدين السائد فى البلاد العربيـة هـو الإسـلام ، كمـا أن الدولـة العثمانيـة حملت لواء الخلافة الإسلامية بعد هزيمتها للممـاليك فـى موقعتـى مـرج دابـق والريدانيـة ، ونقل الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين من مصر إلى استنبول[2] .

وحتى تتضح الصورة حول إيجابيات وسلبيات الحكم العثمانى ينبغى أن نقسم أدوار هذا الحكم إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة القوة ، وهى المرحلة التى شيد فيها العثمـانيون دولتهم على أسس سليمة مكنتهم من فرض سيطرتهم على مناطق كبيرة فـى آسـيا وأوربـا وافريقية . وكانت نظرة العثمانيين خلالها لا تخلـو مـن الشـعور بـالقوة والتفوق علـى مـن عداهم من البشر ، وحيث كانوا يعتمدون فيها على موقف المؤمن من غير المؤمن المدعـم بتفوق عسكرى كاسح ، لذا فقد بنت الدولة العثمانية قواعدها على أنها دولة عسكرية وكـل أفرادها – حتى ولو كانوا من العلماء والشيوخ – يعد محاربـا عنـد الحاجـة ، وهذه الفترة يمكـن أن تتوقـف عنـد مـوت السـلطان سـليمان القـانونى ١٥٦٦م ومرحلـة الضعـف

١- محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثمانى جـ٢ ، بيروت ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ص٨ .

٢- للتفاصيل انظر محمد بن أحمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٣ ، القاهرة ، المطبعة الكبرى ببولاق ، ١٣١٢هـ ص١٢٠ ، ص١٤٧ .

وهى التى تميزت بالهزائم العسكرية المتلاحقة التى برزت منذ هزيمة كارلويتز Karlovitz[1] ١٦٩٩-١٧٠٢م حيث اتضح من خلالها مدى تخلف القوات العثمانية عن ركب الحضارة الحديثة وعجزها عن رد كيد أعداء المسلمين[2] . ويمكن القول بأن هذه المرحلة استمرت حتى سقوط الخلافة .

ومن خلال هاتين المرحلتين يتضح أن السلاطين الأوائل من من آل عثمان كانت فى الواقع لهم أياد بيضاء فى رفع شأن الإسلام وما وصل إليه من عظمة وسؤدد وسيادة. كما تحمل الأواخر منهم مسئولية المصير المؤلم الذى آلت إليه الدولة فى عهدهم ، وأدى فى النهاية إلى انهيارها[3] .

فمن المعروف أن العثمانيين فى فتوحاتهم لأوربا نظروا إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شىء ، فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامى أولا[4] حيث كان الدين والدولة عندهم شيئا واحدا ، والقرآن والسنة هما المصدران الأصيلان فى أى تحرك منهم أو عليهم ، ومن هنا فتحوا للإسلام العديد من الأمصار التى لم يطأ إليها قدم مسلم من قبل[5] ، مما كان له أثر طيب فى نفوس المسلمين ، ففى القاهرة ودمشق كانت تقام الأفراح والزينات عقب كل انتصار يحرزه العثمانيون .

وقد اقترنت حركة الفتوحات العثمانية سواء فى الأناضول أم فى أوربا باسم الإسلام ومن هنا نظر الأوربيون إلى الفتوحات العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، فباسم الإسلام واصل عثمان مؤسس الدولة العثمانية جهوده فى نشر الإسلام فى مناطق الثغور، وواصل عمليات الجهاد الإسلامى المنظم ضد الكيانات المسيحية المجاورة له .

وباسم الإسلام تمكن مراد الأول ثالث أمراء آل عثمان ٧٦٢-٧٩٢هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م من دخول البلقان وتحقيق العديد من الانتصارات التى توجت بفتح مدينة

١- تنازلت بعدها الدولة العثمانية عن المجر وترنسلفانيا وبعض المناطق الأخرى لروسيا والنمسا وبولندا.

٢- سيد مصطفى : الإصلاح العثمانى فى القرن الثامن عشر - نقد حالة الفن العسكرى والهندسة والعلوم فى القسطنطينية ١٨٠٣م - تحقيق خالد زيادة ، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ص١١ .

٣- مجموعة من المؤلفين : عصر السلطان عبد الحميد الثانى وأثره فى الأقطار العربية ١٨٧٦-١٩٠٩م، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية د . ت ص٩ .

٤- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠م ص١٠ .

٥- ول ديورانت : قصة الحضارة - ترجمة عبد الحميد يونس ، جـ٤ من المجلد السادس ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ص١٠٩ .

"أدرنة" ١٣٦١م[1] وهزيمة القوى النصرانية ونقل العاصمة من بروسه إلى أدرنة التى عمرت بالمساجد والمدارس وأصبحت نقطة انطلاق لمواصلة الفتوحات الإسلامية فى أوربا[2] .

وباسم الإسلام استولى الجيش العثمانى على العديد من مدن شرق أوربا ومن أبرزها صوفيا عاصمة بلغاريا التى تم الاستيلاء عليها فى عام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م[3] .

وباسم الإسلام استمرت الفتوحات العثمانية فى البلقان وتساقطت مدنها أمام ضربات العثمانيين ، ووصل العثمانيون إلى المورة وأخضعوها لحكمهم وأصبحت معظم بلاد البلقان تحت الحكم العثمانى[4] .

وباسم الإسلام فتح محمد الثانى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م مصداقا للحديث الشريف "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش[5]" ذلك الفتح الذى يعد نقطة تحول فاصلة ليس فقط فى تاريخ العثمانيين[6] بل وفى تاريخ الصراع بين النصرانية والإسلام فبعد هذا الفتح المبين أمر محمد الفاتح أن يؤذن فيها ، واتجه إلى القبلة وصلى كما حول كاتدرائية آيا صوفيا إلى مسجد وأطلق على القسطنطينية اسما إسلاميا جديدا وهو إسلامبول[7] بمعنى عاصمة الإسلام ، وبنى محمد الفاتح مسجدا كبيرا يحمل اسمه ، كما بنى عشرة مساجد أخرى[8] ألحق بها مدارس للتعليم ومستشفيات للفقراء ولم تتوقف جهود الفاتح على ذلك بل استطاع القضاء على الإمارات المسيحية فى الأناضول ، وتحويل آسيا الصغرى كلها

١- أرنولد توينبى: تاريخ البشرية جـ٢ - ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر ١٩٨٨م ص١٨٧.

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى ، بيروت، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٤٨-٥٠ .

٣- عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ص٣٤ .

٤- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٨٤م ص٤٢٧-٤٢٨ .

٥- ورد فى مسند أحمد ، وفى مستدرك الحاكم (حديث صحيح) وانظر أيضا جلال الدين السيوطى: الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ، المجلد الثانى ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص٤٠٢ رقم ٧٢٢٧.

٦- سيد مصطفى : المرجع السابق ص ٩ .

٧- حملت القسطنطينية على مر تاريخها أسماء عديدة منها استامبول واستانبول ودار السعادة ودار الخلافة والأستانة .

٨- منها مسجد "أبو أيوب الأنصارى" انظر دليل الأستانة ص٣ .

إلى مناطق عثمانية .

وباسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعا خطيرا وهو الاستيلاء على روما مقر البابوية مقسما أن يقدم الطعام بيده إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية فى روما مما أزعج العالم المسيحى كله الذى لم يتنفس الصعداء إلا بعد وفاة هذا القائد المسلم فى عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م .

وباسم الإسلام تعددت مظاهر الطابع الإسلامى فى السياسة العامة للدولة العثمانية بدءا بالمراسيم التى كانت تتخذ عند تقليد السلاطين العثمانيين عرش السلطنة حيث كان السلطان الجديد يتسلم عرش السلطنة فى موكب رسمى يتجه إلى مسجد أبى أيوب الأنصارى ، ويتسلم فى جو دينى سيف الجد الأكبر للسلاطين العثمانيين السلطان عثمان الأول[١] .

وباسم الإسلام تردد فى القوانين العامة التى أصدرها السلاطين ، وفى مراسيم التنظيمات العثمانية ما يؤكد حرص الدولة على الظهور بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية والمتبنى لأحكامها[٢] .

وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان القانونى على بلجراد ورودس وبودابست ووصلت قواته إلى فينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون فى فتوحاتهم بأوربا[٣] .

وباسم الإسلام قدم السلطان العثمانى أبو يزيد الثانى ١٤٨٠-١٥١١ المعاونة للسلطان المملوكى قانصوه الغورى بعد تحطيم أسطوله فى موقعة ديو البحرية فأمده بالأسلحة والأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد ، وتجهيز حملة أخرى لمواجهة البرتغاليين استنقاذا للأماكن الإسلامية المقدسة[٤] ، كما انضم إلى الأسطول المملوكى بعض البحارة والضباط من الأسطول العثمانى للوقوف معا ضد البرتغاليين[٥] .

وباسم الإسلام أوقفت الدولة العثمانية المخطط الصليبى الذى كان يستهدف دخول البرتغاليين البحر الأحمر ، والاستيلاء على جدة والزحف على مكة المكرمة لهدم الكعبة

١- كارل بروكلمان : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، بيروت ، ١٩٤٩ ص٤٦ .

٢- أحمد فهد الشوابكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ ص١٤ .

٣- أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص٢٥٥ .

٤- ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٤ ص٢٠١-٢٠٣ .

٥- محمد عبد المنعم الراقد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة ص١٢٣-١٢٥ .

المشرفة ، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومواصلة الزحف إلى تبوك وصولا إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، فقامت الدولة العثمانية بوضع خطة جديدة تمثلت فى اتخاذ الموانى اليمنية – خصوصا عدن – خط دفاع لمهاجمة المراكز البرتغالية فى الهند ، والدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، كما استطاعت دحر الأسطول البرتغالى بالقرب من جدة عام ٩٢٣هـ ، وتحطيم كل المحاولات التى بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية ، وذلك بالتحالف مع الأحباش ضد القوى الإسلامية فى البحر الأحمر وشرقى افريقية[١] .

وباسم الإسلام قامت الدولة العثمانية بتوحيد أقطار العالم الإسلامى فى إطار سياسى واحد ، وتأليف جبهة إسلامية واحدة بعد أن كانت كيانات متنافرة ، وتكاد تكون متباعدة بين بعضها منذ أن تلاشت الوحدة الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة وسقوطها فى عام ٦٥٦هـ على يد المغول[٢] ، وأصبحت رابطة الدين هى الرابطة الأساسية بين البلاد العربية بعضها مع بعض وبين الدولة العثمانية .

وباسم الإسلام اهتمت الدولة العثمانية بأمور الحجاز – وكان من أبرز مظاهر ذلك هو اهتمامها بالأماكن الإسلامية المقدسة – حيث به قبلة المسلمين ، ومهبط الرسالة ، ومنزل الوحى ، وملتقى قلوب المسلمين فقد أمر السلطان سليم الأول بوضع ثلث ما كان يجبى من مصر للإنفاق على خدمة الحرمين الشريفين ، كما أضاف لهذه المهمة أيضا خراج اليونان مما أضفى على البلاد الحجاز مركزا دينيا مرموقا ، كما أولت الدولة العثمانية قوافل الحج والاشراف عليها ، وتيسير الحج أمام الراغبين فيه اهتماما خاصا فاهتمت بالطرق ، وحفرت الآبار على طول طرق الحج ، وأقامت المخافر ، وكانت تشرف على قواعد الحج الرئيسية التى كانت تخرج من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة[٣] .

وباسم الإسلام تدخلت الدولة العثمانية لنجدة أهالى الخليج العربى الذين طلبوا منها المعاونة فى عام ٨٥٧هـ/١٥٥٠م لمواجهة الخطر البرتغالى على بلادهم ، فبعث السلطان سليمان القانونى بحملات منظمة من السويس إلى الخليج العربى لمعاونة إخوانه فى الإسلام ، وسار على نهجه بقية السلاطين من بنى عثمان حتى عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٢١ .

٢- رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ص٣١ .

٣- مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية : قدسية الحرمين الشريفين ، القاهرة ، هجر للطباعة والنشر ، مقال للدكتور الصفصافى المرسى تحت عنوان "قوافل الحج فى الدولة العثمانية" ص٦٣-٦٤.

واستطاعت هذه الحملات أن تنزل العديد من الهزائم بالبرتغاليين[١] .

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية ضد الأطماع البرتغالية وحالت دون تحقيقها فى أرض الإسلام وذلك بعد أن عجز المماليك وغيرهم من الوقوف أمام تهديدات البرتغاليين خصوصا بعد معركة ديو البحرية ١٥٠٩م فقامت بإغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن النصرانية ، ولم يسمح لها بتسيير سفنها فى القسم الشمالى من البحر الأحمر ، أو بالإبحار فى هذا البحر فيما وراء ثغر المخا جنوبى الحديدة فى اليمن ، وكانت ذريعتها فى ذلك أن أهم الأماكن الإسلامية فى العالم على الإطلاق تقع فى الحجاز ، ويطل ساحل هذا الإقليم على البحر الأحمر ، لذلك يجب ألا تبحر منه غير السفن الإسلامية[٢] ، وظلت الدولة العثمانية متمسكة بذلك الموقف حتى أواخر القرن الثامن عشر[٣] ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية قدمت أعظم خدمة للإسلام حيث وقفت فى وجه الزحف الصليبى البرتغالى للبحر الأحمر والأماكن الإسلامية المقدسة ، وكانت الملجأ للعالم الإسلامى وقت الملمات .

وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالى افريقية فى الصراع الصليبى مع الأسبان والبرتغاليين الذين حاولوا احتلال هذه الأقاليم وتحويلها إلى المسيحية فأعلن السلطان سليم الدعوة إلى الجهاد فى شمالى افريقية وأمر بتكوين كتائب المجاهدين[٤] حتى استقرت الأمور للإسلام والمسلمين هناك .

وباسم الإسلام ساندت الدولة العثمانية أهالى طرابلس فى مقاومة الخطر الصليبى على بلادهم بعد أن أرسلوا إلى السلطان سليمان القانونى يلتمسون منه التدخل لإنقاذهم لتحرير بلادهم من الأسبان الذين استولوا عليها[٥] وفرسان القديس يوحنا الذين استهدفوا تغيير الوجه الإسلامى لبلادهم . وقد أرسل السلطان سليمان قواته للمحافظة على هذه البلاد العربية الإسلامية[٦] حتى استقرت الأمور هناك .

١- نوال الصيرفى : النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى ، الرياض ، دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٤٤-١٤٥ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ، ص٦٩٨-٦٩٩ .

٣- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص١٢٨ .

٤- عبد الكريم رافق : المرجع السابق ص٧٦-٧٧ .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٢٨-٩٢٩ .

٦- المجلة التاريخية المصرية : المجلد الخامس والعشرون ١٩٧٨ مقال للدكتور ناصر سعيدونى تحت عنوان "طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر ص١٤٩-١٥٠ .

وباسم الإسلام قام العثمانيون بملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من رودس[1] ثم من ليبيا عام ١٥٥١م وكذلك قيامهم بكسر شوكة الأسبان فى حوض البحر المتوسط الغربى[2] .

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية أمام زحف الصفويين الشيعة الذين تمكنوا من الاستيلاء على العراق ، ونشر المذهب الشيعى فى الأناضول ، وراحوا يحملون الناس قسرا على الدخول فى مذهبهم ، ولا يترددون فى إفناء مدن بأسرها ، والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوتهم ، ويتمسكون بالمذهب السنى[3] .

وكان من نتيجة ذلك قيام السلطان العثمانى سليم الأول بغزو فارس والالتقاء مع الصفويين بوادى جالديران[4] فى أواخر عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م فى معركة رهيبة استطاع فيها العثمانيون هزيمة الصفويين فى جالديران ودخول عاصمتهم تبريز[5] فى ١٤ من رجب ٩٢٠هـ وضم ولايتى ديار بكر وكردستان إلى بلاده والاستيلاء على خزائن الشاه، والقضاء على المد الشيعى فى الأناضول[6] والعمل على انحساره فى العراق ، وبذلك استطاع العثمانيون حماية المذهب السنى من خطر الزحف االشيعى الذى كان الشاه اسماعيل الصفوى يأمل فى نشره فى كافة أنحاء المشرق العربى والقضاء على المذهب السنى . ولم يكتف العثمانيون بذلك بل خاضوا العديد من المعارك مع الفرس دفاعا عن العراق الذى كان الفرس يتطلعون إليه دائما ، ويرغبون فى صبغته بالصبغة الشيعية ولو بحد السيف[7] . وبالرغم من أن ذلك كلفهم العديد من الرجال والعتاد[8] فقد تمكنوا من حصر المذهب الشيعى فى فارس ، ولم يسمحوا بتسربه إلى البلدان العربية الواقعة تحت

١- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١٢٧ .

٢- رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٣٢-٣٣ .

٣- أحمد الساداتى : المرجع السابق ص١٥٢ .

٤- يقع بين بحيرة أرمية وتبريز بأذربيجان .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٤ .

٦- مما يذكر أن السلطان سليم قتل نحو الأربعين ألفا من الشيعة . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار النفائس ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٨٩ .

٧- عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشا ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص٥ .

٨- الساداتى : المرجع السابق ص٢٥٥ .

سيطرتهم[1] ، وبذلك ظهر سلاطين الدولة العثمانية أمام العالم الإسلامى بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية ، والحماة التقليديين للمذهب السنى .

وباسم الإسلام عد الأتراك أنفسهم حراسا لدولة الإسلام وقد دفعهم ذلك إلى الاحتفاظ بحاميات فى الأقاليم العربية التابعة لهم ، وإذا كان الجندى العثمانى لا يتميز بسرعة اندماجه مع الأهالى فإن طول مدة إقامة الحاميات العثمانية فى عدد من الأقاليم البعيدة عن عاصمة الدولة ، وخاصة فى شمالى افريقية كان يسمح بنوع من الاندماج والمصاهرة[2] .

وباسم الإسلام أصدرت الدولة العثمانية بعد فتحها لمصر فرمانا بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء على أساس أنها تضم الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام فقال تعالى: **"وكلم الله موسى تكليما[3]"** ، وقال : أيضا **"ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه[4]"** .

وسار سلاطين الدولة العثمانية على هذا المنوال حتى جاء الانجليز وسيطروا على مصر فى عام ١٨٨٢م فتغيرت الأوضاع[5] هناك .

وباسم الإسلام استولى العثمانيون على قسم كبير من الحبشة (١٥٢٩-١٥٤٢) فى المعركة التى دارت رحاها بينهم وبين القوات البرتغالية ، والتى قاتلت فيها القوات العثمانية إلى جانب المسلمين ، بينما قاتل البرتغاليون إلى جانب الأحباش وقد خرجت الحبشة من القتال وقد أصابها الدمار ونقص سكانها[6] .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثانى بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية خصوصا وأن مبعث ولاء المسلمين للدولة العثمانية كان دينيا ، حيث كانوا مكلفين شرعا بطاعة السلطان باعتباره الخليفة والأب الروحى للمسلمين ، ونائب رسول الله صلى الله

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٥ .

٢- جلال يحى : المغرب الكبير جـ٣ ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٨١م ص٧٠٠ .

٣- النساء : الآية ١٦٤ .

٤- الأعراف : الآية ١٤٣ .

٥- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٦٦ .

٦- توينبى : المرجع السابق جـ٢ ص١٨٩ .

عليه وسلم ، وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا[1] . ومن هنا رأى السلطان عبد الحميد الثانى استخدام هذا الولاء فى حماية البلدان الإسلامية من الأخطار التى تحيط بها ، وانقاذها من حالة التفسخ والركود الذى تغلغل بين أفرادها فدعا إلى جامعة إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت لغاتهم وبلادهم .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثانى بإنشاء سكة حديد الحجاز الذى يصل دمشق بالمدينة المنورة . وبذلك شهدت الأراضى الإسلامية المقدسة لأول مرة فى التاريخ "خطا حديديا" يخدم حجيج بيت الله الحرام ، ويوفر لهم الأمن والسرعة والراحة بعد أن كانوا يستخدمون قوافل الجمال ويتعرضون للعديد من المخاطر ، فكان ذلك أعظم هدية قدمها السلطان عبد الحميد للمسلمين[2] .

وباسم الإسلام وقف السلطان عبد الحميد الثانى ضد استيطان اليهود فى فلسطين ، فعندما عرض عليه هرتزل حل أزمته المالية فى نظير السماح لليهود بالاستيطان فى فلسطين[3] رفض طلبه وحسم الموقف معه بقوله "إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهى ليست ملك يمينى بل ملك شعبى ، لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم[4]" .

ولإحساس السلطان عبد الحميد بعدم توقف الضغوط اليهودية عليه بدأ يهتم بالأوضاع الإدارية فى بيت المقدس فجعلها متصرفية تابعة للباب العالى مباشرة بعد أن كانت تابعة لباشا دمشق ، كما عين محمد شريف رءوف باشا المشهور بشدته متصرفا على القدس[5] . يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية حافظت على تقاليد الخلافة السابقة فى اعتمادها على القرآن كمصدر للتشريع وإن كانت تحيد عن بنوده فى بعض الأحيان[6] .

كل ذلك جعل العالم الإسلامى ينظر إلى أعمال العثمانيين على أنها مفخرة للإسلام والمسلمين .

هذا عن مشارب الدولة العثمانية فماذا عن مثالبها .

١- محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية جـ١ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٥٢م ص٢٠ .

٢- الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٣٢٥-١٣٢٦ .

٣- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٨٨ .

٤- عبد الحميد الثانى : مذكراتى السياسية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ ص٢٤ وما بعدها .

٥- سيد مصطفى : المصدر السابق ص١٠ .

٦- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٩٧٥-٩٧٩ .

الواقع أن هناك العديد من المآخذ التى أخذت على العثمانيين مثل عدم نجدتهم لأهل الأندلس خلال سقوط غرناطة . ونظام الحكم العثمانى سواء فى داخل مقر السلطنة أو فى الولايات العربية ، وضعف اللغة العربية وضياع هيبة العلماء ، والمآسى التى ارتكبت فى أواخر الحكم العثمانى ضد العرب خصوصا بعد ظهور النعرات القومية كالطورانية أو غيرها وفيما يلى نعرض لذلك :

١ - عدم نجدة أهل الأندلس خلال محنتهم :

تتحمل الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية وقت سقوط الأندلس مسئولية عدم تقديم النجدة للغرناطيين الذين ناشدوها مساعدتهم عسكريا فى صراعهم من أجل البقاء، والمحافظة على الدين والملة ، فقد أرسل أهل غرناطة فى منتصف عام ١٤٧٧م إلى السلطان محمد الفاتح يناشدونه التدخل لإنقاذهم ولكنه كان مشغولا عنهم[١] ، كما استنجد الغرناطيون بالسلطان بيازيد الثانى ١٤٨٠-١٥١١م ولكنه لم يقدم لهم النجدة[٢] .

٢ - التنازع على وراثة العرش وتنافر الأسرة المالكة العثمانية :

إن نظام التوارث على العرش يكون له أثر كبير فى استقرار أمور الدولة إذا بنى على أسس ثابتة ومعروفة ، أما فى الدولة العثمانية فإن هذا النظام كان فى حاجة إلى انتظام ففى الفترة الأولى من عصر السلاطين كان نظام الوراثة يقوم على أساس انتقال االعرش من الابن البكر إلى الأكبر فالأصغر من الأبناء ، وهكذا فإن اخوة السلطان وأبناءهم الذين يخرجون من السلطة بمقتضى هذا النظام كانوا كثيرا ما يغتنمون الفرص للخروج على السلطان أملا فى استخلاص العرش لأنفسهم ، يقابل ذلك أن السلطان القائم كان يفقد الثقة باخوته ولا يتورع عن الفتك بهم ، ثم عدل نظام الإرث فى عهد السلطان الرابع عشر أحمد الأول ١٦٠٣-١٦٢٧م فأصبح العرش ينتقل من الأكبر فالأصغر من إخوة السلطان بدلا من انتقاله إلى الأكبر فالأصغر من بنيه[٣] ، ثم تغير هذا النظام بأن أصبح للسلطان الحاكم الحق فى أن يختار من يخلفه من بين أبنائه أو من إخوته دون أن يتقيد باختيار الابن أو الأخ الأكبر من أدى إلى ظهور روح التنافر ، وقيام المؤامرات داخل القصور السلطانية لإبعاد أمير عن العرش أو تقريب أمير آخر منه ، وكانت هذه المؤامرات تأتى غالبا من زوجات السلطان اللاتى أنجبن أولادا منه رغبة فى أن يكون

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٨٩٨ .

٢- هناك من يذكر أن السلطان بيازيد الثانى أرسل أسطولا لنجدة أهل الأندلس ولكن ذلك لم يثبت تاريخيا. انظر ستانلى لين بول : الدول الإسلامية - ترجمة محمد صبحى فرزات - القسم الأول ، دمشق ، مكتب الدراسات الإسلامية ص٦٥ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٧ .

ابنهن وليا للعهد ، ونظرا لهذا التصارع للوصول إلى السلطة كان الابن الذى يصل إلى منصب السلطنة كثيرا ما يقوم بقتل جميع منافسيه ، أو يفرض عليهم أن يظلوا سجناء فى قصورهم لا يخالطون أحدا ومن غريب الأمر أن يصدر السلطان محمد الفاتح قانونا خول بمقتضاه السلطان الذى يتولى العرش بأن يقوم بقتل اخوته تأمينا لسلامة الدولة وأمنها القومى(١) ، وقد عبر محمد الفاتح عن ذلك صراحة فى سجل القوانين بقوله "إن غالبية المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش يكون لهم الحق فى إعدام إخوتهم تأمينا للسلام فى الدولة وعليهم أن يعملوا طبقا لهذا" وبهذا حكم محمد الفاتح فى هدوء بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم ، وثمة سيئة أخرى من سيئات هذا النظام وهى أن ممتلكات المحكوم عليهم بالإعدام كانت تؤول إلى السلطان مما شجع العديد من السلاطين على اقتراف هذه الجريمة(٢) .

أى صلات رحم هذه التى يقوم فيها الأخ بقتل إخوته خشية على سلطته ؟! ثم جاء بعد ذلك دور الإنكشارية فى التمثيل بالسلاطين أنفسهم وعزلهم وتنصيب من يجدون فيه عونا لهم وذلك منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، وأبرز الأمثلة على ذلك أنهم قاموا بخلع السلطان مصطفى الأول ، وقتلوا عثمان الثانى وإبراهيم الأول(٣) .

٣ - زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات :

لقد سمح الإسلام للرجل المسلم بالتزوج من النصرانية أو اليهودية طبقا لقوله تعالى: "**اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا ءاتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين**(٤)" .

ولكن قد يقتضى الأمر أحيانا عدم الزواج من الكتابيات خشية تسرب أسرار الدولة إلى أعدائها من اليهود والنصارى ، وقد يقتضى الأمر أيضا زواج السلاطين من الكتابيات لمصالح سياسية فمثلا كانوا يتزوجون من بنات الملوك والأمراء النصارى أو اليهود ليكسبوا ودهم .

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٣٤٦-٣٤٩ .

٢- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٥ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٨ .

٤- سورة المائدة : الآية ٥ .

وعلى الرغم من أن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان قد اختاروا الزواج من الأجنبيات لغايات سياسية ، ولتأمين العصبيات فانه سرعان ما تطورت الأمور وأصبحت قصور السلاطين آهلة بالجوارى والسرارى الأجنبيات اللاتى تظاهرن بالإسلام ولكنهن فى الواقع لن ينسين أوطانهن الأولى ولا قومياتهن السابقة فاستغللن وضعهن فى القصر السلطانى واهتممن بخدمة أوطانهن الأصلية على حساب الدولة العثمانية(١) . وقد أوتين من الدسائس ألوانا أودت بعز الدولة ، وسودت صفحات عواهلها مما كان له أكبر الأثر فى تفسخ الأسرة العثمانية المالكة وإضعاف شأنها(٢) ، وأبرز الأمثلة على ذلك أن السلطان سليمان القانونى ضم إلى حريمه نحو ثلاثمائة جارية كلهن مشتريات من الأسواق أو أسيرات فى الحرب ، ومعظمهن من أصل مسيحى(٣) ، يضاف إلى ذلك انه كانت له محظية شركسية تعرف باسم "وردة الربيع" أنجبت له طفلا أسماه مصطفى ، وعهد إليه بعدة مناصب ، ودربه ليكون وريثا للعرش(٤) ، ثم فجأة شغف بروكسلانه الروسية التى انتزعته من محظيته الشركسية فاتخذها زوجة له ، وقتل ابنه وولى عهده مصطفى إرضاء لها بعد أن حبكت له مؤامرة - شاركها فيها رستم باشا الصدر الأعظم(٥) - أوغرت فيها صدر أبيه عليه ، وعين ابنه سليم من روكسلانه وليا للعهد بدلا من أخيه الأكبر(٦) .

يضاف إلى ذلك أن هذه المرأة استطاعت حجب زوجها السلطان عن قيادة الحملات الحربية بعد أن كان وجوده فى ساحة القتال يثير حماس الجنود ويلهب مشاعرهم(٧) . وسار من جاء بعده من السلاطين على منواله مما أدى إلى فتور حماس الجند ، كما بدأ الفساد يدب فى صفوف الإنكشارية الذين كانوا قد اعتادوا على أن لا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود حملتهم . يضاف إلى ذلك أن السلاطين أصبحوا فى معزل عن معرفة أحوال قواتهم ، ومدى ما وصلت إليه من قوة خصوصا وأن الحاشية السلطانية كانت تحجب عن السلاطين الأمور التى لا تريد أن تصل إلى مسامعها(٨) .

١- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٤٠ .
٢- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص١٣ .
٣- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٧ .
٤- نفسه ص١٢٦ .
٥- ألقت روكسلانه فى روع زوجها سليمان أن ابنه مصطفى يحاول أن يكسب شعبية تطلعا منه إلى انتزاع العرش ، كما اتهم رستم باشا مصطفى بانه يتودد سرا إلى الانكشارية ليقفوا بجانبه ضد أبيه مما جعل الشك يساور السلطان فأمر بقتل ابنه . انظر ول ديورانت : المرجع السابق ص١٢٧ .
٦- الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٦١٧ .
٧- نفسه : ص٦١٤ .
٨- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٢٢ .

٤ - الاعتماد على الانكشارية :

اعتمدت الدولة العثمانية فى عملية التجنيد علـى جمـع أبنـاء العـائلات الأرثوذكسية خصوصا من البلقان فكانت ترسل وكلاءها إلى هذه المناطق حيث يطلبون من قسيس القرية كشفا بأسماء الأطفال الذكور الذى قام بتعميدهم ثم يقومون بجمعهم ، ويتحركون بهم إلى الآستانة حتى تنقطع صلاتهم بذويهم نهائيا(١) . وقد عرفت هذه العملية باسم "الدفشرمه(٢) " Devshirme أو ديوشيرمه وهى كلمة تركية تعنى ضريبة الغلمان .

وقد أعدت الدولة هؤلاء الغلمان ليكونوا فرق مشاه فى الجيش العثمانى وأطلق عليهم الانكشارية(٣) . وقد قامت هذه القوات بدور رئيسى فى الفتوحات العثمانية وصار لا يعول إلا عليها فى الحرب ، ولما أخذت الدولة العثمانية تمر فى مراحل الضعف ترك الحبل على الغارب لزعماء الانكشارية حتى تضخم نفوذهم وتزايد لدرجة أنهم خرجوا عن حدودهم وتعدوا واستبدوا وأصبحوا عبئا ثقيلا على السلاطين أنفسهم خصوصا بعد أن صار بمقدورهم تنصيب السلاطين أو خلعهم(٤) . يضاف إلى ذلك قيامهم فى العديد من المرات بالتمرد ، وسلب أموال الأهالى ، وإشعال النيران فى ممتلكاتهم واقتحام المنازل والاعتداء على من فيها ، واعتراض مواكب السلاطين(٥) والتدخل فى سياسة الدولة العليا، هذا إلى جانب انتهاكهم للشريعة وتمزيق القرآن أثناء ثوراتهم ، وإهمال الصلاة ، وشرب الخمر(٦) ، واستمرت الأحوال على ذلك حتى تمكن السلطان محمود الثانى من القضاء عليهم بقتل أغلبهم فى ٩ ذى القعدة من عام ١٢٤١ الموافق ١٦ من يونيو ١٨٢٦(٧) دون أن يجد البديل الذى يستطيع حماية أراضى الدولة العثمانية والدفاع عنها ضد أعدائها .

١- لتفاصيل ذلك انظر :

H. Gibb and H, Bowen : Islamic Society and the west, vol 1 pp. 56-60 .

٢- عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربى ١٥١٦-١٩٢٢ ، بيروت ، دار النهضة العربية ص٤٢ .

٣- معناها الجنود الجدد ، وقصة هذه الكلمة أنه لما صار لدى السلطان أورخان عدد ليس بقليل من هؤلاء الجند ، سار بهم إلى شيخ طريقة البكطاشية ليدعو لهم بخير ، فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (ينى تشارى) أى الجيش الجديد ثم حرف هذا الاسم فى العربية فصار انكشارى . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص٤٢ . انظر أيضا توينبى : المرجع السابق جـ٢ ص١٨٨ .

٤- سيد مصطفى : المصدر السابق ص١٠ .

٥- لتفاصيل ذلك انظر الشناوى : المرجع السابق جـ١ ص٤٩٤-٤٩٩ .

٦- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢٦٨ .

٧- محمد فريد : المرجع السابق ص٤٢ .

٥ - عدم مسايرة الدولة العثمانية للتطور فى أنظمة الحكم وأحداث عصر النهضة:

لم تعمل الدولة العثمانية على تطوير أنظمتها فى الحكم والادارة فظلت أنظمتها جامدة فى حين أخذت أوربا فى تطوير أجهزتها الحكومية منذ عصر النهضة مما أوجد فجوة حضارية بينهما .

ونتيجة لذلك أخذت الشعوب المسيحية التابعة للعثمانيين تتطلع إلى الانفصال ، وبدأت الدول الأوربية تتدخل من أجل اقتسام أملاك الدولة العثمانية[1] فدعت إلى عقد مؤتمرات دولية لبحث ما أطلق عليه المسألة الشرقية .

يضاف إلى ذلك أن العثمانيين لم يسايروا تطورات عصر النهضة فى أوربا مما جعل الفجوة الحضارية شديدة الاتساع بين الشرق والغرب ، وأظهر عجز العثمانيين عن متابعة هذه التطورات .

٦ - الاعتماد على غير المسلمين فى تسيير أمور الدولة العامة :

لقد وجد اليهود والنصارى عند السلاطين العثمانيين صدرا رحبا إذ اعتمدوا عليهم فى جميع أجهزة الدولة خصوصا المناصب الكبرى منها فشكل هؤلاء غالبية الهيئة الادارية فى الحكومة العثمانية[2] ، كما أسند إليهم قيادة الجيوش ، ووصل بعضهم إلى منصب الوزارة والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن السلطان بايزيد الأول ١٣٨٨-١٤٠٣م قد ولى الأمير سيسمان ابن ملك البلغار على ولاية صمصون ، يضاف إلى ذلك أن الباب العالى اعتمد فى اختيار وزرائه على الأوربيين حديثى العهد بالإسلام لا سيما الأبان[3] . وإلى جانب ذلك فإن العثمانيين سمحوا ليهود الدونمة بتولى الوظائف الهامة فى الدولة ، مما كان له أكبر الأثر فى ضرب الإسلام وتهديم كيانه من الداخل خصوصا بعد أن لبس هؤلاء لباس الإسلام وعاشوا بين المسلمين يظهرون لهم المودة فى حين كانوا فى الباطن يدبرون لهم المؤامرات ، ويكونون التنظيمات المعادية للإسلام بهدف اقتلاع الحكم الإسلامى من جذوره وقد ساعدهم على ذلك صلتهم الوثيقة بحكومة الاتحاد والترقى التى استولت على الحكم بعد خلع السلطان عبد الحميد

٧ -المآسى التى ارتكبها العثمانيون ضد العرب :

ارتكب العثمانيون العديد من المآسى ضد الشعوب العربية بطريقة تبعد حكمهم إلى حد كبير عن روح الإسلام وسماحته ، فقد كانوا فى كثير من الأحيان يشعرون بميزة

١- الشناوى : المرجع السابق جـ٤ ص١٨١٠-١٨١١ .

٢- ول ديورانت : المرجع السابق جـ٤ المجلد السادس ص١١٢ .

٣- بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٣٩ .

مستواهم المستمدة من سلطة عنصرهم على حين كان العرب يشعرون بأنهم أصحاب البلاد الأصليين والأدلة على ذلك متعددة وواضحة ذكرها بعض شهود العيان ومن هؤلاء المؤرخ ابن اياس الذى قال عن جنود السلطان سليم بعد دخولها إلى بلاد الشام "إن عسكر ابن عثمان خرب غيطان الشام ، ونهب الفواكة من فوق الأشجار ، ورعت خيولهم فى الغيطان ، وأكلوا أوراق الأشجار وطردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا بها وأخربوا غالب بيوت الشام وحصل منهم لأهل الشام غاية الضرر(١)" . وقال بعد دخول القوات العثمانية مصر إن "ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أبطالها ويتم أطفالها ، وأسر رجالها وبدد أحوالها وأظهر أهوالها(٢)" . يضاف إلى ذلك "أن ابن عثمان كان ينحجب عن عسكره أياما لا يظهر فيها وفى هذه المدة يقتل العسكر خلقا فى المدينة ، ويتجاهرون بالمعاصى والفسوق ، وأنهم لا يصومون شهر رمضان ، ويشربون فيه الخمر والبوزة ، ويستعملون فيه الحشيش والشحيب ويفعلون الفاحشة فى الصبيان المرد فى شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلى الجمعة إلا قليلا . وقد أشيعت عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة"(٣) .

وذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى مفاسد الجند العثمانى بقوله "يأكلون ويشربون جهارا فى نهار رمضان ، ويشربون الحشيش والمسكرات ، ويزنون ويلوطون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارا فى نهار رمضان ولياليه(٤) " .

وأوضح محمد الادريسى – أمير منطقة المخلاف السليمانى – مفاسد الأتراك العثمانيين بقوله إنهم كانوا "يستبيحون الحرم ، وينتهكون الأعراض ، ويتجاهرون بالمعاصى والخروج عن الحدود التى حددها الله ورسوله غير مبالين ولا متأدبين فلا الصلاة يؤدون ولا الشهر يصومون ، ولا هم فى حكمهم يعدلون"(٥) . كل ذلك جعل الأهالى ينفرون منهم، كما ذكر الادريسى أن العثمانيين كانوا يتقاضون الرشوة ، ويحتقرون العرب ولغتهم هذا بالاضافة إلى إهمال جميع المصالح العامة وإهانة رجال الدين(٦) .

١- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص١٤٤ .

٢- نفسه جـ٣ ص١٣٣ .

٣- نفسه جـ٣ ص٨٢-٨٣ .

٤- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ٤ ، القاهرة ، المطبعة الشرفية ١٣٢٢هـ ص٢٢٨ ، ٣١٠ .

٥- محمد الادريسى : هذا بيان للناس وموعظة للمتقين ، رسالة إلى صديق له فى مصر بتاريخ ٦ ربيع الثانى ١٣٣٠هـ .

٦- نفسه .

يضاف إلى ذلك أن الادارة العثمانية لم تعمل على إيجاد أى باعث حقيقى لإسعاد رعاياها بل انقسم أبناء الدولة إلى حكام ورعايا ، كما انتشرت الرشوة فى كافة الأوساط الحكومية لدرجة انه كان هناك سماسرة للوزراء خصوصا فى أيام عبد الحميد الثانى ينتشرون فى الولايات ، ويعقدون الصفقات فى شئون الدولة[1] مما كان له تأثيرات سلبية خصوصا على المجتمعات العربية أدت فى نهاية الأمر إلى عدم شعور الأهالى بالولاء للدولة العثمانية[2] .

ومن مساوىء أنظمة الدولة العثمانية لحكم البلاد العربية ما يلى : -

١ – أن الوالى الذى كان بمثابة نائب السلطان فى البلد الذى يحكمه وكان تعيينه غالبا لمدة عام واحد مما جعل الولاة لا يهتمون بأمور ولاياتهم بل كان جل همهم هو جمع الأموال لأنفسهم والانصراف عن المشروعات العمرانية والإنتاجية التى تتطلب متابعة متوالية لإتمامها[3] .

٢ – انتشار الرشوة بين أفراد الديوان الذى كان بمثابة الهيئة الحكومية العليا نتيجة لتبنى موظفى الادارة العثمانية بعض الأفكار الخاطئة عن اختصاصهم فصار التقليد المتبع هو الحصول على الترقية بالرشوة والمحسوبية ، كما طرحت المناصب الادارية والمدنية والامتيازات والرتب فى المزاد العلنى ، وساد الاستهتار بين موظفى الدولة والجند الذين فقدوا بالتدريج المثل الأخلاقية التى كانت قد بدت واضحة عليهم فى المراحل الأولى من الحكم العثمانى ، فالباشا الصالح فى نظرهم هو الذى كان يرسل المبالغ المعينة التى تتطلبها خزانة السلطان ، وكانت هذه هى أول خطوة نحو الرشوة فقد عمل الولاة على الاستفادة من وجودهم فى مناصبهم ، وتعويض ما دفعوه من رشاوى هذا بالإضافة إلى تكوينهم للثروات الضخمة[4] .

٣ – تركيز السلطة فى أيدى بعض الزعماء المحليين الذين حاولوا الاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية مما أدى إلى سلسلة من الاضطرابات والانقسامات داخل الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية[5] .

٤ – لجوء الدولة العثمانية إلى طريقة الالتزام حتى تتمكن من تأمين الأموال اللازمة لها خصوصا وأن الملتزمين كانوا يجمعون من الأهالى ما يفوق الأموال التى

١– بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٤٤ .

٢– رأفت الشيخ : المرجع السابق ص٣٦–٣٧ .

٣– جلال يحي : العالم العربى الحديث ، الاسكندرية ، دار المعارف ١٩٧٤م ص٥١ .

٤– عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٢٧ .

٥– نفسه : ص١٢٦ .

كانت تطلبها الدولة . فكان الملتزمون كثيرا ما يقترضون الأموال من مصارف استنبول بربا فاحش بغية تأمين المبالغ المقررة عليهم دفع الرشاوى للمسئولين حتى يقع عليهم الاختيار فإذا بلغوا مقر ولايتهم تفننوا فى ابتزاز الأموال من الأهالى فكانوا يفرضون الضرائب الباهظة ، ويطلقون أيديهم فى ممتلكات الأهالى ، ولا يتورعون عن المصادرات، واتهام الأبرياء بالجنايات بغية ابتزاز الأموال مما أدى إلى تخريب القرى والاقطاعات من جراء المظالم التى ارتكبت والاعتداءات ووقوع الأهالى فى شراك الفقر والمظالم[1] ، وياليت الأمر اقتصر على الأحياء ، فقد قرر رجال الدستور من العثمانيين استيفاء ضريبة على دفن الموتى[2] .

٥ – عدم اهتمام العثمانيين بنواحى التعليم الصحة والعمران فى البلدان العربية خصوصا وأن فكرة الحكم عند العثمانيين كانت بسيطة للغاية وهى ان للدولة وظائف محددة لا يجب أن تتعداها وهى الدفاع عن ولاياتها ، والحفاظ على الأمن وتحصيل الأموال أما فيما عدا ذلك مثل الاهتمام بالتعليم أو الرعاية الصحية أو النواحى العمرانية فقد كانت الدولة العثمانية تعدها خارج نطاق مسئوليتها وتتركها للأفراد والجماعات .

وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية التى حكمت العالم العربى حوالى أربعة قرون لم تترك فيه أى أثر من الآثار العمرانية الكبيرة يذكره التاريخ لها فلم تهتم بالمرافق ، ولم يهتم الولاه العثمانيون بحفر ترعة أو إقامة جسور جديدة ، بل جفت بعض الترع القديمة لعدم تطهيرها ، وانهارت الجسور القائمة لعدم العناية بها ، وأغلقت بعض المدارس التى كانت قائمة قبيل الحكم العثمانى ، يضاف إلى ذلك أن العثمانيين فرضوا على أنشطة العرب فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية جمودا بحيث لم يعد العرب يشاركون العالم بنشاطهم فى هذه المجالات . وإلى جانب ذلك فقد تسبب العثمانيون فى قتل النشاط الاقتصادى المزدهر فى معظم البلدان العربية ، ويرجع ذلك إلى أن الدولة العثمانية لم تتدخل سريعا وبصورة جدية لضرب المعاقل البرتغالية فى الخليج العربى والهند إلا بعد نصف قرن من الزمان[3] تقريبا هذا إلى جانب أن العثمانيين نقلوا إلى بلادهم أكثر ما فى القلعة وأكثر ما فى منازل السلاطين والأمراء المماليك من الذخائر والنفائس والكتب وقد وصف ذلك أحد شهود العيان بقوله: "وأشيع أ ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل

١– بيهم : المرجع السابق جـ٢ ص٤٧–٤٨ .

٢– كان مقدار هذه الضريبة خمسة ريالات وللتفاصيل انظر أحمد السباعى : تاريخ مكة جـ١ ، مطبوعات نادى مكة الثقافى ، الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٥٦٠ .

٣– الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٤٤٦–١٤٤٨ .

محملة ما بين ذهب وفضة هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس والمكفت والخيول والبغال والجمال وغير ذلك حتى نقل منها الرخام الفاخر[1] "

يضاف إلى ذلك أنه نقل العمال المهرة من مصر إلى الآستانة[2] حتى أغلقت الكثير من الورش ، وفقدت مصر أكثر من خمسين صنعة[3] .

٦ – تدهور الدراسات الدينية والفكرية وانحطاط هيبة العلماء :

خلال الحكم العثمانى للعالم العربى ضاق حيز الدراسات الدينية نسبيا ، ولذلك لا نجد فى العصر العثمانى حماس العلماء من أجل إضافة أشياء جديدة تضاف إلى رصيد ما جاء به فحول الفقهاء فيما يتعلق بالشريعة والخلافة والإمامة ونظم الحكم بل انحطت هيبة العلماء ، وتدهورت سمعتهم ، وازداد نمو الفساد فى سلوكهم لدرجة أن الوظائف العليا بينهم كانت تباع للأشخاص غير المؤهلين لتولى هذه المناصب[4] . يضاف إلى ذلك أن إهمال العثمانيين للغة العربية ، وسيطرة اللغة التركية عليها خاصة فى دواوين الحكومة والمعاملات الرسمية قد أدى إلى شيوع العجمة فى التراكيب ، والتردى فى الكثير من الأخطاء النحوية واللغوية[5] ، وانتهى الأمر باستغلال الارساليات التنصيرية للفرصة ، وتشجيعهم لنصارى الشام على حمل لواء النهضة الفكرية فى العالم العربى .

وإلى جانب ذلك فقد أدى تدهور الدراسات الدينية إلى انتشار البدع والخرافات بين المسلمين حتى أصبح الناس لا يعرفون التفرقة بين الصحيح وغير الصحيح فى دينهم ن ونتيجة لذلك راح العلماء العرب الغيورون على دينهم يحاولون إصلاح أمور بلادهم وأبرز مثال على هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى تعد دعوته أولى الحركات الإصلاحية فى الوطن العربى ، والتى بذلت الدولة العثمانية جل جهودها للقضاء عليها .

٧ – تدهور الحركة العلمية فى العصر العثمانى :

سيطرت روح الجمود المطلق على الحركة العلمية فى البلدان العربية إبان الحكم العثمانى فلا نكاد نجد فى العصر العثمانى مؤلفات تتمتع بشىء من الأصالة العلمية وبالتالى لا نجد علماء يماثلون علماء العصر المملوكى مثلا فقد انكب العلماء فى العصر العثمانى على تأليف الملخصات ووضع الحواشى على الحواشى وتخيل غرائب المسائل

١– ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص١٣٣ .

٢– نفسه ص١٢٢ .

٣– الجدير بالذكر ان السلطان سليمان القانونى قد أمر بإعادة هؤلاء العمال إلى مصر .

٤– عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص٢١١ ، ٢٦٧ .

٥– عبد المنعم الجميعى : عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ١٩٨٠ ص٣٩٦ .

النحوية والفقهية ، وصاروا يدعون إلى الاستسلام للأمر الواقع .

ولم يقف الحال على ذلك بل أغلقت معظم المدارس وتدنت الروح العلمية فيما تبقى منها تدنيا ظاهرا بسبب تعصب العثمانيين من جهة ، ونضوب الموارد المالية من جهة أخرى ، وعلى هذا فإنه يمكن القول: إن مرحلة الانحطاط العلمى قد سيطرت على البلدان العربية ، منذ استيلاء العثمانيين عليها[1] ولكن هل هذا يعنى أن نلقى اللوم كل اللوم على العثمانيين فحسب . فالواقع أن هناك بعض المناطق العربية مثل المغرب ونجد وعمان لم تقع تحت طائلة الحكم العثمانى ، ومع ذلك فانه لم ينتابها التقدم مثلها مثل البلدان العربية الأخرى التى دخلت تحت الحكم العثمانى مما يوضح أن الأوضاع التى خيمت على البلدان الشرقية فى ذلك الوقت ، وروح الركون إلى الكسل والخمول الذى انتاب رجالاتها كان لها الدور الأكبر فى ذلك .

٨ – إهمال شئون أمن الحجاج والحرمين الشريفين :

فى الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى لم تهتم الدولة العثمانية بشئون حجيج بيت الله الحرام لدرجة أن الأعراب كانوا ينقضون على الحجاج سلبا ونهبا وقتلا ، ويسومونهم سوء العذاب دون أى رادع يردعهم خصوصا وأن العثمانيين لم يرسلوا إلى أرض الحجاز من الجنود ما يحفظ الحج والحجاج ويجعلهم فى مأمن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم[2].

ومما زاد الطين بله انه عندما قامت ثورة الشريف حسين بن على ضد الأتراك فى شعبان ١٣٣٤هـ/ يونيو ١٩١٦م ودارت رحى المعارك من أجل إخراج الأتراك من مكة أطلق الأتراك نيران مدافعهم من قلعة أجياد المقامة على الجبل صوب الكعبة حتى التهمت النيران أستار البيت العتيق ، وهرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبها ، وفتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهب[3] .

وهكذا انتهك الأتراك حرمة أقدس البقاع فى الأرض ، ومهما برر البعض الأعذار لهم فمن المعروف أن مكة المكرمة كلها حرم لا يجوز القتال فيه .

١- أكرم العلبى : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ٩٠٦-٩٢٢هـ /١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ، الشركة المتحدة للتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص١٩٣-١٩٥ .

٢- إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية ، المجلد الثانى ص٧٥-٧٨ .

٣- أحمد عبد الغفور عطار : الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، مكة المكرمة ، ١٣٦٧هـ/١٩٧٧م ص١١٦ .

٩ – الامتيازات الأجنبية التى منحتها الدولة العثمانية للأوربيين فى البلدان العربية :

من المعروف انه نتيجة لدخول العثمانيين إلى البلاد العربية حرمت هذه البلاد من ممارسة سيادتها خارج نطاق حدودها وأصبحت الدولة العثمانية هى صاحبة الأمر والنهى فى تسيير أمورها ، وقد أعطت هذه الدولة بعضا من الامتيازات لعدد من الدول الأوربية تم استغلالها فى فترة ضعف الدولة لصالح رعايا هذه الدول الذين أخذوا يفسرون هذه الامتيازات تفسيرا تعسفيا ، كما أخذت دولهم تتدخل فى شئون البلدان الإسلامية مستغلة فى ذلك هذه الامتيازات وانتزعت لنفسها العديد من الأطماع[١] .

١٠ – مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال البريطانى لمصر :

كان لتخبط السياسة العثمانية تجاه المسألة المصرية أكبر الأثر فى تعقدها وضياع استقلالها ومن أمثلة ذلك التخبط عدم موافقة السلطان عبد الحميد على الاشتراك فى مؤتمر الأستانة فى عام ١٨٨٢ الذى تقرر فيه بحث المسألة المصرية مما أبعد الدولة العثمانية عن المشاركة فى تحديد مستقبل مصر ، وترك مصيرها معلقا فى أيدى الدول الأوربية[٢]. يضاف إلى ذلك أنها ترددت فى اتخاذ موقف ثابت تجاه كل من العرابيين والخديو ، كما ترددت فى إرسال قوات عسكرية إلى مصر بناء على طلب الخديو ، وتباطأت فى اتخاذ موقف محدد من طلب الخديو المعونة من الانجليز ثم زادت الطين بله بإصدارها منشورا بعصيان عرابى مما قلب ميزان الحماس الشعبى ، وأضاع التأييد الإسلامى للثورة العرابية، وكان له أسوأ الأثر فى النفوس وأدى إلى إيقاع الفرقة والانحلال فى صفوف العرابيين ، وانصراف الناس عن تأييدهم مما أتاح لانجلترا فرصة احتلال مصر[٣] .

١١ – مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال الفرنسى للجزائر :

تباطأت الدولة العثمانية فى ترضية فرنسا عندما طلبت منها التدخل لتأديب داى الجزائر الذى أظهر عداء واضحا للفرنسيين بتحقيره لقنصل فرنسا ، ورفضه تقديم الترضية العلنية ، وكان يجب عليها الإسراع لحسم الموقف خصوصا وأن نذر الحرب كانت واضحة بين فرنسا والجزائر . ومع ذلك فانها قررت عدم التدخل فى القضية فى

١– الشناوى : المرجع السابق جـ٢ ص٧٢٠ .

٢– الشناوى : المرجع السابق جـ٤ ص٢٢٧٥ .

٣– لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر بحثنا المعنون " موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية " والمنشور فى العدد السادس والعشرون من المجلة التاريخية المصرية .

أول الأمر نظرا لأنها كانت منهمكة فى إخماد ثورة المورة القائمة ضدها[1] . ونتيجة لذلك انفردت فرنسا بالجزائر ، وقامت باحتلالها فى عام ١٨٣٠م .

١٢ – عدم مسايرة العثمانيين للتطورات التى حدثت فى أوربا إبان عصر النهضة، وعزلهم للعالم العربى عن التطور العالمى الذى بدأ مع بداية العصور الحديثة وذلك عندما فرضوا ستارا حول العالم العربى بحجة حمايته من الغزو العسكرى الأوربى. حقيقة لقد سمحت الدولة العثمانية بوجود تبادل تجارى بين العرب والأوربيين[2] ولكنها أبقت العالم العربى على حالته التى كانت موجودة قبل فتحها له . وفى الوقت الذى تطورت أوربا فى مضمار النهضة تطورا كبيرا أسدلت الدولة العثمانية ستار الجمود حول البلدان العربية بهدف تعويق تقدمها ومنعها من الاقتراب من عصر النهضة الذى بدت آثاره واضحة فى أوربا مما أدى إلى تخلف العالم العربى عن ركب هذه النهضة ، وإضعاف ثقته فى نفسه .

كل هذه الأوضاع جعلت العالم العربى يعيش فى حالة من الجمود فى ظل الحكم العثمانى جعلته يدخل إلى القرن العشرين وهو لم يتخلص بعد من حياة العصور الوسطى. وانتهى الأمر بظهور جماعة الاتحاد والترقى ، وسيطرتها على مقاليد أمور الدولة العثمانية ، وتعصبها للحركة الطورانية التى تستمد أساسها من التركيز على انتساب الأتراك إلى أصول طورانية والدعوة إلى بعث الجنس التركى وتمجيده ، وتخليصه من المؤثرات العربية والفارسية ، ومحاولة تتريك العرب وغيرهم من العناصر التابعة للعثمانيين بجعل اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى المدارس والمحاكم والدواوين[3] ، مما أدى إلى نفور العرب ، وشعورهم برغبة الأتراك فى صبغهم بالصبغة التركية .

ولما ألغيت السلطنة وجاء أتاتورك اتخذ من الاجراءات التى باعدت بين الدولة والإسلام عموما ، ومن هذه الاجراءات إلغاء الخلافة ، وإلغاء منصب شيخ الإسلام وحذف عبارة "إن دين الدولة التركية هو الإسلام" والمناداة بتركيا دولة علمانية[4] ، وإلغاء القانون الإسلامى وتبنى قانون الأحوال الشخصية العلمانى ، وإلغاء التقويم الهجرى ، واستبدال العطلة الاسبوعية بيوم الأحد بدلا من الجمعة ، وإلغاء الحروف العربية التى كانت تكتب بها اللغة التركية واستبدالها بحروف لاتينية، ومنع الصلاة والتعبد فى جامع أيا صوفيا ، وتحويله إلى متحف[5] .

١– أرجمند كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٢٧–١٨٤٧م – ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمى ، تونس ، الطبعة الثانية ص٢٤–٢٥ .

٢– سيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨–١٦٣٥ ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ ص٤٤٢ .

٣– الشناوى : المرجع السابق جـ٣ ص١٢٢٨ .

٤– نفسه جـ١ ص٨٥ .

٥– للتفاصيل انظر على حسون: تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ص٢٢٧–٣٠٠ .

الخاتمة

وهكذا تعرضنا لسلطنة آل عثمان التى استوفت قسطها من الحياة بما فيها من رقى وهبوط ، وإساءة وإحسان فاستعرضنا خدماتها للإسلام والمسلمين خلال فترة قوتها وما وقعت فيه من أخطاء وتخبط أودى بالعالم الإسلامى إلى الكثير من المشاكل والأطماع الاستعمارية وذلك خلال فترة ضعفها .

ولكى تتضح الحقيقة ينبغى أن نذكر أن تخلف العالم العربى خلال فترة الحكم العثمانى لم يكن مسئولية العثمانيين وحدهم ، وإنما كانت هناك عوامل أخرى متعددة يعود بعضها إلى أوضاع العالم الإسلامى نفسه ، يضاف إلى ذلك أن العثمانيين مدينون أكثر من غيرهم للإسلام باعتباره البوابة التى دخلوا منها التاريخ فهو أساس دولتهم وحضارتهم وإليه يرجع كل ما يفخر به العثمانيون .

الملاحق

ملحق رقم (١)

بيان بأسماء سلاطين آل عثمان وسنوات حكمهم

	(الجلوس-الوفاة) بالهجرى	(الجلوس- الوفاة) بالميلادى
١- السلطان عثمان بن أرطغرل	٦٩٩-٧٢٦	١٢٢٩-١٣٢٦
٢- السلطان أورخان بن عثمان	٧٢٦-٧٦١	١٣٢٦-١٣٦٠
٣- السلطان مراد بن اورخان	٧٦١-٧٩٢	١٣٦٠-١٣٨٩
٤- السلطان بايزيد بن مراد	٧٩٢-٨٠٥	١٣٨٩-١٤٠٢
٥- السلطان محمد جلبى بن بايزيد	٨١٦-٨٢٤	١٤١٣-١٤٢١
٦- السلطان مراد بن محمد	٨٢٤-٨٥٥	١٤٢١-١٤٥١
٧- السلطان محمد الثانى (الفاتح) ابن مراد	٨٥٥-٨٨٦	١٤٥١-١٤٨١
٨- السلطان بايزيد الثانى ابن مراد	٨٨٦-٩١٨	١٤٨١-١٥١٢
٩- السلطان سليم بن بايزيد	٩١٨-٩٢٦	١٥١٢-١٥٢٠
١٠- السلطان سليمان القانونى ابن سليم	٩٢٦-٩٧٤	١٥٢٠-١٥٦٦
١١- السلطان سليم الثانى ابن سليمان	٩٧٤-٩٨٢	١٥٦٦-١٥٧٤
١٢- السلطان مراد الثالث ابن سليم	٩٨٢-١٠٠٣	١٥٧٤-١٥٩٥
١٣- السلطان محمد الثالث ابن مراد	١٠٠٣-١٠١٢	١٥٩٥-١٦٠٣
١٤- السلطان أحمد الأول ابن محمد	١٠١٢-١٠٢٦	١٦٠٣-١٦١٦
١٥- السلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث	١٠٢٦-١٠٤٨	١٦١٦-١٦١٨
١٦- السلطان عثمان الثانى ابن محمد الثالث	١٠٢٧-١٠٣١	١٦١٨-١٦٢٢
١٧- السلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث	١٠٣١-١٠٣٢	١٦٢٢-١٦٢٣
١٨- السلطان مراد الرابع ابن أحمد الأول	١٠٣٢-١٠٤٩	١٦٢٣-١٦٤٠
١٩- السلطان ابراهيم ابن أحمد الأول	١٠٤٩-١٠٥٨	١٦٤٠-١٦٤٨
٢٠- السلطان محمد الرابع ابن ابراهيم خان	١٠٥٨-١١٠٤	١٦٤٨-١٦٨٧
٢١- السلطان سليمان الثانى ابن ابراهيم خان	١٠٩٩-١١٠٢	١٦٨٧-١٦٩١
٢٢- السلطان أحمد الثانى ابن ابراهيم خان	١١٠٢-١١٠٦	١٦٩١-١٦٩٥

٢٣- السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع	١١٠٦-١١١٥	١٦٩٥-١٧٠٣
٢٤- السلطان أحمد الثالث ابن محمد الرابع	١١١٥-١١٤٩	١٧٠٣-١٧٣٠
٢٥- السلطان محمود الأول ابن مصطفى الثانى	١١٤٣-١١٦٨	١٧٣٠-١٧٥٤
٢٦- السلطان عثمان الثالث ابن مصطفى الثانى	١١٦٨-١١٧١	١٧٥٤-١٧٥٧
٢٧- السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث	١١٧١-١١٨٧	١٧٥٧-١٧٧٣
٢٨- السلطان عبد الحميد ابن أحمد الثالث	١١٨٧-١٢٠٣	١٧٧٣-١٧٨٩
٢٩- السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث	١٢٠٣-١٢٢٥	١٧٨٩-١٨٠٧
٣٠- السلطان مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول	١٢٢٢-١٢٢٣	١٨٠٧-١٨٠٨
٣١- السلطان محمود الثانى ابن عبد الحميد الأول	١٢٢٣-١٢٥٥	١٨٠٨-١٨٣٩
٣٢- السلطان عبد الحميد الأول ابن محمود غازى	١٢٥٥-١٢٧٧	١٨٣٩-١٨٦١
٣٣- السلطان عبد العزيز ابن محمود	١٢٧٧-١٢٩٣	١٨٦١-١٨٧٦
٣٤- السلطان مراد خان ابن عبد المجيد	١٢٩٣-١٢٩٣	١٨٧٦-١٨٧٦
٣٥- السلطان عبد الحميد ابن عبد المجيد	١٢٩٣-١٣٢٨	١٨٧٦-١٩٠٩
٣٦- السلطان محمد رشاد ابن عبد المجيد	١٣٢٧-١٣٣٦	١٩٠٩-١٩١٨
٣٧- السلطان محمد السادس (وحيد الدين) ابن عبد المجيد	١٣٣٦-١٣٤٤	١٩١٨-١٩٢٣
٣٨- السلطان عبد المجيد ابن عبد العزيز (خليفة فقط)	١٣٤٠-١٣٤١	١٩٢٣-١٩٢٤

اعلان الجمهورية بقيادة مصطفى كمال (أتاتورك) ١٩٢٣ .

ملحق رقم (٣)

القانون الأساسى فى ممالك الدولة العثمانية[1]

على الرغم من أن السلطان عبد الحميد الثانى كان قد وعد قبيل جلوسه على عرش السلطنة يمنح الأمة العثمانية الدستور والحرية فقد ماطل فى الأمر لفترة حتى اضطره ظروف الدولة الخارجية وتربص الدول الأوربية ببلاده إلى تنفيذ ما وعد به فأمر بإجراء بعض الاصلاحات ، كما عين مدحت باشا أبو الأحرار صدرا أعظم . وفى السابع من شهر ذى الحجة ١٢٩٥هـ / ٢٤ ديسمبر ١٨٧٧ اجتمع العلماء والأمراء والوكلاء وغيرهم فى الباب العالى ثم قرأ مدحت باشا الادارة الشاهانية التى منحت الأمة العثمانية القانون الأساسى . وفيما يلى نعرض لمواد هذا القانون :

١- ﴿ **المادة الأولى** ﴾ ان الدولة العثمانية تحتوى على الممالك والقطع الحاضرة وعلى الايالات الممتازة وجميعها جسم واحد لا يمكن تفريقه أو تجزئته بوقت من الأوقات أو بسبب من الأسباب .

٢- ﴿ **المادة الثانية** ﴾ ان مدينة استانبول هى عاصمة الدولة العثمانية ومقرها وهذه المدينة غير معفاة أو ممتازة عما سواها من جميع البلاد العثمانية .

٣ -﴿ **المادة الثالثة** ﴾ ان السلطنة السنية العثمانية الحائزة على الخلافة الكبرى الإسلامية تكون لأكبر سلالة آل عثمان بحسب الأصول القديمة .

٤ - ﴿ **المادة الرابعة** ﴾ ان حضرة السلطان حسب الخلافة هو الحامى لدين الإسلام وهو ملك جميع التبعة العثمانية وسلطانها .

٥ - ﴿ **المادة الخامسة** ﴾ ان نفس ذات الحضرة السلطانية هى مقدسة وغير مسئولة .

٦ - ﴿ **المادة السادسة** ﴾ ان حقوق حرية سلالة آل عثمان وأموالهم وأملاكهم الذاتية وتخصيصتهم المالية ما دامت الحيوة جميعها تحت التكافل العمومى .

١- كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب ، الأستانة ، الجزء السادس ، الطبعة الأولى ١٢٩٥هـ ..

٧ - ﴿ **المادة السابعة** ﴾ ان عزل الوكلاء ونصبهم وتوجيه المناصب والرتب واعطاء النياشين وتوجيهات الايالات الممتازة توفيقا لشروط امتيازهم وضرب المسكوكات وذكر اسمه فى الخطب وعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية وإعلان الحرب والصلح والترأس على القوة البحرية والبرية واجراء الحركات العسكرية والأحكام الشرعية والقانونية وتنظيم النظامات المتعلقة بمعاملات دوائر الادارة وتخفيف المجازاة القانونية أو العفو عنها وعقد المجلس العمومى أو فضه وتعطيله وفسخ هيئة المبعوثان لدى الاقتضاء على شرط انتخاب الأعضاء مجددا ذلك جميعه من جملة حقوق الحضرة السلطانية المقدسة.

❖❖❖❖❖

﴿ فى حقوق تبعة الدولة العثمانية العمومية ﴾

٨ - ﴿ **المادة الثامنة** ﴾ يطلق اسم عثمانى بدون استثناء على كافة أفراد التبعة العثمانية من أى دين ومذهب كانوا وهذه الصفة العثمانية تفقد أو تستحصل على مقتضى الأحوال المعينة قانونيا.

٩ - ﴿ **المادة التاسعة** ﴾ العثمانيون بأجمعهم يملكون حريتهم الشخصية ومكلفون بأن لا يتسلطوا على حقوق حرية الآخرين .

١٠ - ﴿ **المادة العاشرة** ﴾ تصان الحرية الشخصية من كافة أنواع التعرض ولا يجازى أحد تحت أى حجة كانت خارجا عن الصور والأسباب المعينة فى القانون .

١١ - ﴿ **المادة الحادية عشرة** ﴾ ان دين الدولة العثمانية هو دين الإسلام مع المحافظة على هذا الأساس تكون حرية جميع الأديان المعروفة فى الممالك العثمانية وكافة الامتيازات الممنوحة إلى الجماعات المختلفة تحت حماية الدولة على شرط أن لا تخل براحة الخلق ولا بالآداب العمومية .

١٢ - ﴿ **المادة الثانية عشرة** ﴾ تكون المطبوعات مطلقة فى دائرة القانون .

١٣ - ﴿ **المادة الثالثة عشرة** ﴾ التبعة العثمانية مأذونة أن تشكل ضمن دائرة النظام والقانون كل أنواع الشركات لأجل التجارة والصنعة والفلاحة .

١٤ - ﴿ **المادة الرابعة عشرة** ﴾ إذا رأى أحد التبعة العثمانية أو عدة أشخاص منهم قضية متعلقة بهم أو بالعموم مخالفة للقوانين والنظامات يحق لهم أن يقدموا

بخصوصها عرض حال لمرجعها ويحق لهم كذلك أن يقدموا للمجلس العمومي عرض حال ممضيا بصفة مدعين وأن يشتكوا من أفعال المأمورين .

١٥ - ﴿ **المادة الخامسة عشرة** ﴾ أمر التدريس يكون مطلقا وكل عثمانى مأذون بالتدريس خصوصيا كان أو عموميا على شرط اتباع القانون المعين .

١٦ - ﴿ **المادة السادسة عشرة** ﴾ توضع جميع المكاتب تحت نظارة الدولة ويجب التشبث فى الأسباب التى تجعل التربية العثمانية على نسق واحد فى الاتحاد والانتظام ولا يقع خلل فى أصول التعليم المتعلق بأمور معتقدات الملل المختلفة .

١٧ - ﴿ **المادة السابعة عشرة** ﴾ يكون كافة العثمانيين متساوين أمام القانون وفى حقوق المملكة ووظائفها فيما عدا الأحوال المذهبية والدينية .

١٨ - ﴿ **المادة الثامنة عشرة** ﴾ يشترط فى مطلب استخدام التبعة العثمانية فى خدمات الدولة أن يعرفوا اللسان التركى الذى هو لسان الدولة الرسمى .

١٩ - ﴿ **المادة التاسعة عشرة** ﴾ تقبل عموم التبعة فى مأموريات الدولة ويستخدمون فيما يناسب منها بحسب أهليتهم ولياقتهم .

٢٠ - ﴿ **المادة العشرون** ﴾ تطرح التكاليف المقررة وتتوزع على التبعة بنسبة اقتدار كل فرد منهم توفيقا لنظاماتها المخصوصة .

٢١ - ﴿ **المادة الحادية والعشرون** ﴾ يكون كل فرد أمينا على ماله وعلى ملكه المتصرف فيه تصرفا أصوليا ولا يؤخذ من أحد الملك الذى فى تصرفه ما لم يثبت لزومه للمنافع العمومية وما لم يدفع له ما يساويه من الثمن نقدا على موجب القانون .

٢٢ - ﴿ **المادة الثانية والعشرون** ﴾ يصان مسكن كل فرد فى الممالك العثمانية ومنزله من التعرض وليس فى وسع الحكومة أن تدخل جبرا إلى مسكن أحد أو منزله بسبب من الأسباب فيما عدا الأحوال التى يعنيها القانون .

٢٣ - ﴿ **المادة الثالثة والعشرون** ﴾ على موجب حكم قانون أصول المحاكمة المقرر وضعه لا يجبر أحد على الذهاب إلى محكمة غير المحكمة المنسوب إليها قانونيا .

٢٤ - ﴿ **المادة الرابعة والعشرون** ﴾ السخرة والمصادرة والجريمة ممنوعات ويستثنى من ذلك التكاليف والأحوال التى تعين أصوليا فى أثناء المحاربة .

٢٥ - ﴿ **المادة الخامسة والعشرون** ﴾ لا يؤخذ من أحد بارة الفرد تحت اسم ويركو ورسومات أو تحت أى اسم آخر من غير أن يكون ذلك مستندا على قانون .

٢٦ - ﴿ المادة السادسة والعشرون ﴾ التعذيب وكل أنواع الأذيـة ممنـوع بالكلية بالوجه القطعى .

❖❖❖❖❖

﴿ فى وكلاء الدولة ﴾

٢٧ - ﴿ المادة السابعة والعشرون ﴾ يحال مسـند الصدارة والمشيخة الإسـلامية إلى من تأتمنهم الحضرة السلطانية وتجرى كذلك مأموريـة كافـة الوكـلاء بموجـب الارادة السنية .

٢٨ - ﴿ المادة الثامنة والعشرون ﴾ يعقد مجلس الوكـلاء تحت رئاسـة الصـدر الأعظم وهذا المجلس هو مرجع الأمور الداخلية والخارجية وما يحتاج من قرار مذكراتـه للاستئذان يجرى بالارادة السلطانية .

٢٩ - ﴿ المادة التاسعة والعشرون ﴾ كل من الوكلاء يجرى على وفـق الأصـول كل ما يكون داخلا تحت مأذونيته من الأمور العائدة لدائرته وما كان خارجا عنها يعـرض على الصدر الأعظم فيجرى الصدر مقتضى ما يكون منها غير محتاج للمذاكرة أو يسـتأذن عنه من الحضرة السلطانية والذى يحتاج إلى المذاكرة يعرضه على مذاكرة مجلس الوكلاء ويجرى مقتضاه على موجب الارادة السنية أما أنواع هذه المصالح ودرجاتها فتتعين بنظـام مخصوص .

٣٠ - ﴿ المـادة الثلاثـون ﴾ وكـلاء الدولـة مسئولون عن الأحـوال والاجـراءات المتعلقة بمأمورياتهم .

٣١ - ﴿ المـادة الحاديـة والثلاثـون ﴾ إذا أورد أحد أعضـاء المبعوثـان أو عـدة منهم شكاية على أحد الوكـلاء توجـب عليـه المسئولية مـن قبيـل بعـض الأحـوال الداخليـة ضمن دائرة وظيفة هيئة المبعوثان يرسل رئيس الهيئة تقرير الشكاية المتقدم له فى ظـرف ثلاثة أيام إلى الشعبة المأمورة بالتدقيق على مـا يمـاثل هـذه المـواد لتنظـر هـل نظـام هيئـة المبعوثان الداخلى يوجب تحويلها إلى الهيئة أولا وبعد أن تجرى الشعبة التحقيقات اللازمـة وتستحصل من المشتكى عليه الإيضاحات الكافلة يتلى لـدى هيئـة المبعوثـان قرارهـا الـذى يترتب بأكثرية الآراء بلزوم التذكر على الشـكاية وإذا مست الحاجـة تستدعى الهيئـة ذلك

المشتكى عليه وتسمع منه رأسا أو من وكيله الايضاحات التى يوردها فى هذا الباب ومتى قر القرار بالأكثرية المطلقة من ثلثئ الأعضاء الموجودين على قبول الشكاية تقدم مضبطة طلب المحاكمة إلى مقام الصدارة فيقدمها الصدر للعرض وتحال الكيفية إلى الديوان العالى بعد تعلق الارادة السنية عليها .

٣٢ - ﴿ **المادة الثانية والثلاثون** ﴾ ان أصول مُحاكمة المتهمين من الوكلاء ستعين بنظام مخصوص .

٣٣ - ﴿ **المادة الثالثة والثلاثون** ﴾ لا فرق بين الوكلاء وسائر أفراد العثمانيين فى كل أنواع الدعاوى المتعلقة بأنفسهم خاصة خارجة عن مأموريتهم أما محاكمة ما شاكل هذه الدعاوى والخصوصات فتجرى فى المحاكم العمومية المنوط بها رؤيتها .

٣٤ - ﴿ **المادة الرابعة والثلاثون** ﴾ يسقط من الوكالة كل الوكلاء الذين يقر قرار دائرة الاتهام فى الديوان العالى على كونهم متهمين وذلك إلى أن تتبرأ ذمتهم .

٣٥ - ﴿ **المادة الخامسة والثلاثون** ﴾ إذا أصر الوكلاء على قبول أحد المواد المختلف عليها بينهم وبين هيئة المبعوثان وكرر المبعوثان رفضها قطعيا بأكثرية الأراء المشفوعة بتفصيل الأسباب الموجبة لرفضها فيكون حينئذ بيد اقتدار الحضرة السلطانية تبديل الوكلاء أو فسخ هيئة المبعوثان على شرط تجديد انتخابها فى المدة القانونية .

٣٦ - ﴿ **المادة السادسة والثلاثون** ﴾ إذا ظهر فى بعض أزمنة انعقاد المجلس العمومى واجتماعه ضرورة مبرمة لوقاية الدولة من خطر أو للأمن العام من خلل فى وقت غير مساعد على جلب المجلس المذكور وجمعه لأجل التذاكر فى القانون الذى يرى لزوم لوضعه فى تلك النازلة فما تعطيه الوكلاء حينئذ من القرارات التى لا تغاير أحكام القانون الأساسى تعتبر موقتة بموجب الارادة السنية فى قوة حكم القانون وذلك إلى أن تجتمع هيئة المبعوثان وتعطى قرارا بخصوصها .

٣٧ - ﴿ **المادة السابعة والثلاثون** ﴾ كل من الوكلاء يستطيع متى أراد أن يحضر فى الهيئتين أو يوجد بهما بالوكالة عنه أحد رؤساء مأمورى معينة وله حق التقدم على الأعضاء فى إيراد النطق .

٣٨ - ﴿ **المادة الثامنة والثلاثون** ﴾ إذا قر قرار هيئة المبعوثان بالأكثرية على أن تستدعى لحضورها أحد الوكلاء للاستيضاح عن مادة ففى وسع الوزير المدعو أن يذهب إلى الهيئة بالذات أو يرسل أحد رؤساء مأمورى معيته ليجيب عما يسأل عنه وفى وسعه أيضا أن يؤخر الجواب إذا وجد لزوما على شرط أن تكون مسئولية التأخير عليه .

﴿ فى المأمورين ﴾

٣٩ - ﴿ **المادة التاسعة والثلاثون** ﴾ جميع المـأمورين ينتخبون للمأموريات التى يكونون أهلا لها على وفق الشروط التى سيتعين نظامها والمأمورون المنتخبون على هذا الوجه لا يعزلون أو يبدلون ما لم يتحقق قانونيا الحال الموجب عزلهم أو يستعفوا من تلقاء أنفسهم ما لم ير لدى الدولة سبب ضرورى لعزلهم أما من كان منهم مستقيما وحسن السلوك وانفصل عن مأموريته لسبب مقتض لدى الدولة فله حق بالترقى أو بالتقاعد أو بمعاش معزوليته حسبما يتعين فى نظام هذا المطلب المخصوص .

٤٠ - ﴿ **المادة الأربعون** ﴾ سيتعين نظام مخصوص لوظائف كل مأمورية على حدتها وكل مأمور مسئول ضمن دائرة وظيفته .

٤١ - ﴿ **المادة الحادية والأربعون** ﴾ كل مـأمور ملزوم باحترام آمره واطاعته ضمن الدائرة التى يعينها القانون أما اطاعته للأمر فى الأمور المخالفة للقانون لا تكون مدارا لتخليصه من المسئولية .

❖❖❖❖❖

﴿ فى المجلس العمومى ﴾

٤٢ - ﴿ **المادة الثانية والأربعون** ﴾ المجلس العمومى يحتوى على هيئتين احداهما تدعى هيئة الأعيان والثانية هيئة المبعوثان .

٤٣ - ﴿ **المادة الثالثة والأربعون** ﴾ اجتماع هيئتى المجلس العمومى فى كل سنة يكون فى بداية تشرين الثانى والمجلس المذكور يفتح او يغلق بموجب الارادة السنية وغلقه يكون فى بداية مارت ولا تعقد احدى هاتين الهيئتين فى زمان تكون به الأخرى غير مجتمعة .

٤٤ - ﴿ **المادة الرابعة والأربعون** ﴾ للحضرة السلطانية أن تفتح المجلس العمومى قبل وقته إذا وجد لدى الدولة لزوم لذلك وأن تنقص مدة الاجتماع المعينة أو تزيدها .

٤٥ - ﴿ المادة الخامسة والأربعون ﴾ يتم افتتاح المجلس العمومى بحضور الحضرة السلطانية بالذات أو بالوكالة بحضور الصدر الأعظم ووكلاء الدولة وأعضاء الهيئتين معا ويتلى فى ذلك اليوم نطق سلطانى متعلق بأحوال داخلية الدولة ومناسباتها الخارجية فى ظرف السنة الجارية وفيما يجب اتخاذه من التشبثات والتدابير فى السنة الآتية.

٤٦ - ﴿ المادة السادسة والأربعون ﴾ فى يوم افتتاح المجلس يحلف بحضور الصدر الأعظم كل من الذوات المنتخبين أو المنصوبين أعضاء للمجلس العمومى على أن يكون صادقا ناصحا للحضرة السلطانية ولوطنه وأن يراعى أحكام القانون الأساسى والوظيفة المودعة لعهدته وأن يجتنب كل ما يخالف ذلك ومن لم يحضر فى ذلك اليوم من الأعضاء يحلف على الوجه المشروح عند اجتماع الهيئة بمعرفة رئيس هيئته .

٤٧ - ﴿ المادة السابعة والأربعون ﴾ أعضاء المجلس العمومى يكونون أحرارا فى آرائهم ومطالعاتهم ولا يكون أحد منهم تحت قيد تعليمات ووعد ووعيد ولايتهم البتة من قبيل الآراء التى يعطيها ولا من جهة المطالعات التى يبينها فى أثناء مذاكرات المجلس إذا لم تقع منه فى جميع ذلك حركة مخالفة لنظام المجلس الداخلى فإذا وقع يعامل بحكم النظام المذكور .

٤٨ - ﴿ المادة الثامنة والأربعون ﴾ إذا اتهم أحد أعضاء المجلس العمومى بالخيانة أو بالتصدى لالغاء القانون الأساسى أو نقضه أو فى احدى تهم الارتكاب وتقرر اتهامه بثلثى الأكثرية المطلقة من هيئة الأعضاء الموجودين فى الدائرة المنسوب إليها أو حكم عليه بجزاء موجب لحبسه أو نفيه قانونيا تسقط عنه صفة العضوية أما محاكمة هذه الأفعال ومجازاتها فتجريها المحكمة المنوط بها ذلك .

٤٩ - ﴿ المادة التاسعة والأربعون ﴾ لكل فرد من أعضاء المجلس العمومى أن يعطى رأيه بالذات أو لا يعطيه فى رد تلك المادة الواقع عليها التذاكر أو فى قبولها .

٥٠ - ﴿ المادة الخمسون ﴾ لا يمكن لأحد أن يكون عضوا فى الهيئتين معا فى وقت واحد .

٥١ - ﴿ المادة الحادية والخمسون ﴾ لا يبادر للمذاكرة فى كلتا هيئتى المجلس العمومى ما لم تكن الأعضاء المرتبة فى كل منهما زائدة واحدا بالعدد عن النصف وكافة المذاكرات تتقرر بالأكثرية المطلقة من الأعضاء الموجودين خلا تلك الخصوصات التى يشترط تقريرها بأكثرية الثلثين ويعتبر رأى الرئيس رأيين عند تساوى الآراء .

٥٢ – ﴿ المادة الثانية والخمسون ﴾ إذا قدم أحد إلى احدى هيئتى المجلس العمومى عرضحال فى دعوى متعلقة بشخصه وتبين أنه لم يراجع فى ذلك مأمورى الدولة العائدة لهم تلك الدعوى أو لم يراجع المرجع التابع له أولئك المأمورون فعرضحاله يرد .

٥٣ – ﴿ المادة الثالثة والخمسون ﴾ التكليف بتنظيم قانون مجدد أو بتعديل أخذ القوانين الموجودة منوط بهيئة وكلاء الدولة ويحق لهيئة الأعيان وهيئة المبعوثان أن تستدعيا بتنظيم قانون لأجل المواد الموجودة فى دائرة وظائفهم المعينة أو بتعديل أحد القوانين الموجودة وحينئذ يستأذن عنها أولا من الحضرة السلطانية بواسطة مقام الصدارة ومتى تعلقت الارادة السنية يحال إلى شورى الدولة تنظيم لوائحها على مقتضى الايضاحات والتفصيلات التى تعطى من الدوائر المتعلق بها ذلك .

٥٤ – ﴿ المادة الرابعة والخمسون ﴾ لوائح القوانين التى تنتظم بالمذاكرة فى شورى الدولة بعد أن يجرى عليها التدقيق والقبول فى هيئة المبعوثان ثم فى هيئة الأعيان تكون دستورا للعمل إذا تعلقت الارادة السنية بإجراء أحكامها ولائحة القانون المردودة من إحدى الهيئتين ردا قطعيا لا يتكرر وضعها فى موقع المذاكرة فى المدة الاجتماعية بتلك السنة .

٥٥ – ﴿ المادة الخامسة والخمسون ﴾ لا يعتبر أحد القوانين مقبولا ما لم تقرأ لائحته بندا فبندا فى هيئة المبعوثان ثم فى هيئة الأعيان ويعطى على كل بند على حدته رأى ويقر عليه القرار بأكثرية الأراء ثم يقر القرار بعد ذلك على مجموع هيئتها تكرارا بالأكثرية .

٥٦ – ﴿ المادة السادسة والخمسون ﴾ على الهيئتين أن لا تقبلا أحدا يأتى إليهما بالأصالة عن نفسه أو بالوكالة عن جماعة لأجل إفادة مادة من المواد ولا تسمعا افادته إذا لم يكن من الوكلاء أو من موكليهم أو من نفس أعضاء الهيئتين أو من أحد المأمورين المدعو رسما بالحضور إليهما .

٥٧ – ﴿ المادة السابعة والخمسون ﴾ مذكرات الهيئتين تكون باللغة التركية واللوائح المقتضى إجراء المذاكرة عليها تطبع صورها وتتوزع على الأعضاء قبل يوم المذاكرة .

٥٨ – ﴿ المادة الثامنة والخمسون ﴾ الآراء التى تعطيها الهيئتان تكون بتعيين الأسماء أو بإشارات مخصوصة أو بالرأى الخفى أما اجراء أصول الرأى الخفى فيتوقف إعطاء قراره على أكثرية آراء الأعضاء الموجودين .

٥٩ - ﴿ المادة التاسعة والخمسون ﴾ ان انضباط داخلية كل هيئة على حدتها محصور برئيسها .



﴿ فى هيئة الأعيان ﴾

٦٠ - ﴿ المادة الستون ﴾ لا يتجاوز عدد أعضاء هيئة الأعيان ورئيسها نهاية ما يكون ثلث مقدار هيئة المبعوثان وتوظيفهم هو منوط رأسا بالحضرة السلطانية .

٦١ - ﴿ المادة الحادية والستون ﴾ لا يمكن أن يكون عضوا فى هيئة الأعيان إلا من كان بالأقل بالغا سن الأربعين وهو من الذوات الذين حازت آثارهم وأفعالهم وثوق العامة واعتمادها والمشهود لهم بحسن الخدمات المسبوقة فى أمور الدولة .

٦٢ - ﴿ المادة الثانية والستون ﴾ عضوية هيئة الأعيان تبقى ما دامت الحيوة ويتعين بهذه المأموريات ذوات من معزولى الوكلاء والولاة ومشيرى المعسكرات وقضاة العسكر والسفراء والبطاركة ورؤساء الحاخامات ومن فرقاء البرية والبحرية ومن سائر الذوات الجامعى الصفات اللازمة ومن يتعين منهم فى غير مأموريات من مأموريات الدولة بناء على طلبه يسقط من مأمورية العضوية .

٦٣ - ﴿ المادة الثالثة والستون ﴾ ان المعاش الشهرى لكل من أعضاء هيئة الأعيان هو عشرة آلاف قرش وإذا كان للأعضاء الموظفين معاش وتعيين من الخزينة باسم آخر أقل من عشرة آلاف قرش فهو يبلغها وإذا كان عشرة آلاف قرش أو أزيد يبقى على حاله .

٦٤ - ﴿ المادة الرابعة والستون ﴾ على هيئة الأعيان أن تجرى التدقيق على لوائح القوانين والموازنة التى تعطى لها من هيئة المبعوثان فإذا رأت فيها أساسيا ما يمس الأمور الدينية وحقوق حضرة الذات السلطانية السنية أو ما يمس الحرية وأحكام القانون الأساسى وتمام ملكية الدولة أو ما يخل بأمنية داخلية وبأسباب المدافعة والمحافظة على الوطن أو ما يخل بالآداب العمومية فلها حينئذ أن تورد مطالعاتها وتردها وترفضها قطعيا أو تعيدها إلى هيئة المبعوثان مصحوبة بملاحظاتها لأجل التعديل والتصحيح واللوائح التى تقبلها تصادق عليها واتعرضها على مقام الصدارة أما العرضحالات المتقدمة إلى الهيئة

فتجرى عليها التصديق ثم تقدمها إلى مقام الصدارة مشفوعة بالمطالعات إذا رأت لذلك لزوما .

❖❖❖❖❖

﴿ فى هيئة المبعوثان ﴾

٦٥ - ﴿ **المادة الخامسة والستون** ﴾ ان مقدار أعضاء هيئة المبعوثان يترتب باعتبار نفر واحد لكل خمسين ألفا من ذكور التبعة العثمانية .

٦٦ - ﴿ **المادة السادسة والستون** ﴾ أمر الانتخاب مؤسس على قاعدة الرأى الخفى وصورة إجرائه ستعين بقانون مخصوص .

٦٧ - ﴿ **المادة السابعة والستون** ﴾ لا يمكن أن يجتمع بعهدة ذات واحدة عضوية هيئة المبعوثان ومأمورية الحكومة معا وإنما تجوز العضوية لمن ينتخب من الوكلاء وإذا انتخب لعضوية المبعوثان واحد من المأمورين فله الخيار فى قبولها أو رفضها ولكن إذا قبلها ينفصل عن مأموريته .

٦٨ - ﴿ **المادة الثامنة والستون** ﴾ ان الذين لا يجوز انتخابهم لهيئة المبعوثان هم أولا الذين ليسوا من تبعة الدولة العلية ثانيا الحائزون موقتا بموجب النظام المخصوص امتياز الخدمة الأجنبية ثالثا الذين لا يعرفون اللغة التركية رابعا الذين لم يكملوا سن الثلاثين خامسا من كان فى خدمة أحد حين الانتخاب سادسا من كان محكوما عليه بالافلاس ولم يعد اعتباره سابعا من اشتهر بسوء الأحوال ثامنا من حكم عليه بالحجر ولم يتمكن من رفعه تاسعا الساقط من الحقوق المدنية عاشرا المدعون التابعية الأجنبية فهو لا يمكن أن يكونوا أعضاء فى هيئة المبعوثان ويشترط فى الانتخابات التى تجرى بعد أربع سنين على من يلزم أن يكون مبعوثا أن يقرأ اللغة التركية وأن يكتب بها أيضا على قدر الامكان .

٦٩ - ﴿ **المادة التاسعة والستون** ﴾ ان انتخاب المبعوثان العمومى يجرى مرة واحدة فى كل أربع سنين ومدة مأمورية كل مبعوث عبارة عنها ويجوز تكرار انتخابه .

٧٠ - ﴿ المادة السبعون ﴾ يبتدأ بانتخاب المبعوثان العمومى من مدة لا أقل من أربعة أشهر قبل تشرين الثانى الذى هو مبدأ اجتماع الهيئة .

٧١ - ﴿ المادة الحادية والسبعون ﴾ كل عضو من هيئة المبعوثان لا يعتبر وكيلا عن الدائرة التى انتخبته وإنما يكون فى حكم وكيل عموم العثمانيين .

٧٢ - ﴿ المادة الثانية والسبعون ﴾ المنتخبون يلتزمون بانتخاب المبعوثان من أهالى دائرة الولاية المنسوبين إليها .

٧٣ - ﴿ المادة الثالثة والسبعون ﴾ إذا فسخت هيئة المبعوثان وتفرقت بالارادة السنية يبتدأ بانتخاب عموم المبعوثان مجددا على وجه أن يجتمعوا فى مدة لا تتجاوز ستة أشهر بعد الفسخ .

٧٤ - ﴿ المادة الرابعة والسبعون ﴾ إذا مات أحد أعضاء هيئة المبعوثان أو وقع فى أحد الأسباب المشروعة الحجرية أو لم يداوم على المجلس مدة طويلة أو استعفى أو سقط من الاعضاوية الحكومية أو لقبوله مأمورية فينتخب لمحله خلافه حسب الأصول بحيث يلحق الاجتماع الآتى .

٧٥ - ﴿ المادة الخامسة السبعون ﴾ ان الأعضاء التى تنتخب لتحل فى مقام الأعضاء المنحلين من العضوية تكون مأموريتهم حتى الانتخاب العمومى الآتى .

٧٦ - ﴿ المادة السادسة والسبعون ﴾ يعطى من الخزينة عشرون ألف غرش لكل من المبعوثان عن كل اجتماع سنوى ويعطى له كذلك مصاريف الذهاب والإياب حكم المأمور الذى معاشه خمسة آلاف غرش شهريا توفيقا لنظام مأمورى الملكية .

٧٧ - ﴿ المادة السابعة والسبعون ﴾ ينتخب من طرف الهيئة ثلاثة أنفار لرئاسة هيئة المبعوثان وثلاثة أنفار لكل من الرئاسة الثانية والثالثة مجموع ذلك تسع ذوات فيعرضون على الحضرة السلطانية فيترجح أحدهم بالارادة السنية السلطانية للرئاسة واثنان منهم كذلك لوكالتى الرئاسة وتجرى مأموريتهم .

٧٨ - ﴿ المادة الثامنة والسبعون ﴾ مذكرات هيئة المبعوثان تكون علانية ولكن إذا وقع التكليف من جانب الوكلاء أو من طرف خمس عشرة ذاتا من هيئة المبعوثان على أن تكون المذكرات خفية على احدى المواد المهمة فيخلى محل هيئة الاجتماع من الحاضرين فيه دون الأعضاء وتتراجع حينئذ الآراء فى رد هذا التكليف أو قبوله .

٧٩ - ﴿ المادة التاسعة والسبعون ﴾ لا يحاكم احد الأعضاء أو يوقف فى مدة اجتماع هيئة المبعوثان ما لم يعط قرار من الهيئة بأكثرية الآراء على سبب كاف لاتهامه أو يقبض عليه فى حال إجراء الجناية أو الجنحة أو عقيب إجراء ذلك .

٨٠ - ﴿ المادة الثمانون ﴾ ان هيئة المبعوثان تتذاكر على لوائح القوانين المحولة لها ولها أن تقبل من ذلك المواد المتعلقة بالأمور المالية والقانون الأساسى أو ترفضها أو تعدلها وبعد أن يجرى التدقيق بالتفصيل فى هيئة المبعوثان على المصارف العمومية حسبما هو موضح فى قانون الموازنة يعطى القرار على مقدارها مع الوكلاء ثم يتعين كذلك مع الوكلاء سوية كمية وكيفية مما يقابل ذلك من الواردات وصورة توزيعها وتداركها .

❖❖❖❖❖

﴿ فى المحـاكـم ﴾

٨١ - ﴿ المادة الحادية والثمانون ﴾ لا يعزل القضاة المنتخبون توفيقا للأصول المخصوصة المنصوبون من طرف الدولة بموجب برآة شريفة بأيديهم وإنما يقبل استعفاؤهم أما ترقيات هؤلاء الحكام ومسلكم وتبديل مأمورياتهم وتقاعدهم أو عزلهم لجرم محكوم به عليهم ذلك جميعه تابع لحكم قانونه المخصوص وهذا القانون يوضح الأوصاف المطلوبة من القضاة ومن مأمورى المحاكم .

٨٢ - ﴿ المادة الثانية والثمانون ﴾ كل أنواع المحاكمات تجرى علانية فى المحاكم ويؤذن بنشر الاعلامات دائما وإنما تستطيع المحكمة أن تجرى المحاكمة خفية بناء على الأسباب المصرحة فى قانونها .

٨٣ - ﴿ المادة الثالثة والثمانون ﴾ يستطيع كل شخص أن يستعمل بحضور المحكمة كل ما يراه لازما من الوسائط المشروعة لمحافظة حقوقه .

٨٤ - ﴿ المادة الرابعة والثمانون ﴾ لا يمكن للمحكمة بأى حجة كانت أن تمتنع عن رؤية الدعوى الداخلة ضمن دائرة وظيفتها وبعد البداءة بفحص الدعوى أو بما لزم من التحقيقات الأولية لا يجوز كذلك تعطيلها أو تعويقها ما لم يكف المدعى يده أما فى الدعاوى الجزائية فى مطلب الحقوق العائدة للحكومة فالدعوى تستمر فى مجراها على وفق النظام .

٨٥ - ﴿ المادة الخامسة والثمانون ﴾ كل دعوى تنظر فى المحكمة المتعلقة بها أما الدعاوى الواقعة بين الحكومة والأشخاص فترى فى المحاكم العمومية .

٨٦ - ﴿ **المادة السادسة والثمانون** ﴾ المحاكم معتوقة من كل أنواع المداخلات .

٨٧ - ﴿ **المادة السابعة والثمانون** ﴾ الدعاوى الشرعية ترى فى المحاكم الشرعية والنظامية فى المحاكم النظامية .

٨٨ - ﴿ **المادة الثامنة والثمانون** ﴾ ان صنوف المحاكم ودرجات وظائفها وصلاحيتها وتقسيماتها وتوظيف الحكام جميعه مستند إلى القوانين .

٨٩ - ﴿ **المادة التاسعة والثمانون** ﴾ لا يجوز البتة أن يتشكل خارجا عن المحاكم العمومية محكمة فوق العادة أو قومسيون يكون فى وسعهما النظر فى بعض مواد مخصوصة والحكم عليها وإنما يجوز تعيين المولى والتحكيم فقط كما هو معين بالقانون .

٩٠ - ﴿ **المادة التسعون** ﴾ لا يمكن لأحد الحكام حال كونه بصفة الحاكمية أن يجمع فى عهدته مأمورية أخرى ذات معاش من الدولة .

٩١ - ﴿ **المادة الحادية والتسعون** ﴾ يعين مدعون عموميون مأمورون بالمحاماة عن حقوق العامة فى الأمور الجزائية وتتعين وظائفهم ودرجاتهم بقانون .

❖❖❖❖❖

﴿ فى الديوان العالى ﴾

٩٢ - ﴿ **المادة الثانية والتسعون** ﴾ الديوان العالى يركب من ثلاثين عضوا عشرة منهم من هيئة الأعيان وعشرة من شورى الدولة وعشرة يفرزون بالقرعة من رؤساء محكمتى التمييز والاستئناف وأعضائهما ويعقد هذا الديوان فى دائرة هيئة الأعيان بالارادة السنية عند اللزوم ووظيفته إنما هى محاكمة الوكلاء ورؤساء محكمة التمييز وأعضائها ومحاكمة كل من اعتدى على ذات الحضرة السلطانية وعلى حقوقها وكل من تصدى لإلقاء الدولة فى خطر .

٩٣ - ﴿ **المادة الثالثة والتسعون** ﴾ يقسم الديوان العالى إلى دائرتين إحداهما الدائرة الاتهامية والثانية ديوان الحكم فأعضاء الدائرة الاتهامية تسعة منهم ثلاثة من هيئة الأعيان وثلاثة من ديوان التمييز والاستئناف وثلاثة من أعضاء شورى الدولة وجميعهم ينتخبون بالقرعة من الأعضاء الذين يؤخذون للديوان العالى .

٩٤ – ﴿ المادة الرابعة والتسعون ﴾ ان هذه الدائرة تعطى القرار بأكثرية الثلثين فى اتهام الذوات المشتكى عليهم أو عدمه والموجودون فى الدائرة الاتهامية لا يوجدون فى ديوان الحكم .

٩٥ – ﴿ **المادة الخامسة والتسعون** ﴾ ان ديوان الحكم تكون أعضاؤه سبعة من هيئة الأعيان وسبعة من ديوان التمييز والاستئناف وسبعة من رؤساء شورى الدولة وأعضائها فيكون مركبا إذا من واحد وعشرين نفرا من أعضاء الديوان العالى والأعضاء المرتبة كما ذكر يحكمون بأكثرية الثلثين قطعيا وتطبيقا للقوانين الموضوعة على الدعاوى التى قر قرار الدائرة الاتهامية على لزوم محاكمتها وحكمهم غير قابل الاستئناف والتمييز.

❖❖❖❖❖

﴿ فى أمور المالية ﴾

٩٦ – ﴿ **المادة السادسة والتسعون** ﴾ لا يمكن وضع أحد تكاليف الدولة وتوزيعه واستحصاله ما لم يتعين بقانون .

٩٧ – ﴿ **المادة السابعة والتسعون** ﴾ ان ميزانية (بودجه) الدولة هى قانون مبين بالتقريب وارداتها ومصارفاتها وهو القانون المستند عليه بوضع تكاليف الدولة وتوزيعها وتحصيلها .

٩٨ – ﴿ **المادة الثامنة والتسعون** ﴾ ان البودجه اعنى قانون الموازنة العمومية يقبل فى المجلس العمومى بعد التدقيق عليه مادة فمادة والجداول المربوطة به الجامعة لمفردات الواردات والمصارفات المخمنة تنقسم إلى أقسام وفصول ومواد متعددة توفيقا لا نموذجها المتعين نظاما والمذاكرات عليها أيضا تجرى فصلا ففصلا .

٩٩ – ﴿ **المادة التاسعة والتسعون** ﴾ ان لائحة قانون الموازنة العمومية تعطى لهيئة المبعوثان عقب فتح المجلس العمومى ليمكن وضعه فى موقع الإجراء قبل دخول السنة المتعلق بها .

١٠٠ – ﴿ **المادة المائة** ﴾ **لا يجوز صرف مال من أموال الدولة خارجا عن الموازنة ما لم يتعين ذلك بقانون مخصوص .**

١٠١ - ﴿ المادة الأولى بعد المائة ﴾ إذا تحقق لزوم قوى لاختيار مصاريف خارجة عن الموازنة لأسباب مجبرة فوق العادة فى الوقت الذى لا يكون فيه المجلس العمومى منعقدا يجوز تدارك المبلغ اللازم لتسوية ذلك المصروف وصرفه بعد عرضه على الحضرة السلطانية والاستئذان وصدور الارادة السنية بخصوصه على وجه أن تكون مسئولية ذلك على هيئة الوكلاء وأنهم يعطون لائحة القانون المتعلقة به إلى المجلس العمومى عقب فتحه .

١٠٢ - ﴿ المادة الثانية بعد المائة ﴾ ان حكم قانون الموازنة هو عن سنة واحدة ولا يجرى حكمه خارجا عن تلك السنة وإنما إذا فسخ مجلس المبعوثان لبعض أحوال خارقة للعادة قبل أن يقرر الموازنة فوكلاء الدولة إذا يمدون جريان أحكام موازنة السنة السابقة إلى حين اجتماع مجلس المبعوثان الآتى وذلك بقرار تتعلق عليه الارادة السنية على وجه أن حكم القرار لا يتجاوز السنة الواحدة .

١٠٣ - ﴿ المادة الثالثة بعد المائة ﴾ ان قانون المحاسبة القطعية يبين صحة المبالغ المتحصلة من واردات تلك السنة ومقدار الصرفيات الواقعة لمصاريفها ويكون شكله وتقسيماته مطابقين بالتمام لقانون الموازنة العمومية .

١٠٤ - ﴿ المادة الرابعة بعد المائة ﴾ تعطى لائحة قانون المحاسبة القطعية إلى المجلس العمومى بعد أربع سنين من اعتبار ختام السنة المتعلقة بها بشرط أن لا تتجاوز هذه المدة .

١٠٥ - ﴿ المادة الخامسة بعد المائة ﴾ يترتب ديوان محاسبات لرؤية محاسبات مأمورى قبض أموال الدولة وصرفها والتدقيق على محاسبات السنة التى تنظمها الدوائر على وجه أن الديوان المذكور يعرض على هيئة المبعوثان مرة فى السنة خلاصة تدقيقاته ونتيجة مطالعاته بتقرير مخصوص وعليه أيضا أن يعرض على الحضرة السلطانية مرة فى كل ثلاثة أشهر تقريرا عن أحوال المالية بواسطة رئاسة الوكلاء .

١٠٦ - ﴿ المادة السادسة بعد المائة ﴾ تتركب أعضاء ديوان المحاسبات من اثنى عشر شخصا وينصب كل منهم بالارادة السنية ويستمر فى /اموريته ما دامت الحيوة ولا يفصل عنها ما لم تصادق هيئة المبعوثان بالأكثرية على لزوم عزله .

١٠٧ - ﴿ المادة السابعة بعد المائة ﴾ تتعين أوصاف أعضاء ديوان المحاسبات وتفصيل وظائفهم وصورة استعفائهم أو تبديلهم أو ترقيهم أو تقاعدهم وكيفية تشكيل أقلامهم وترتيبها بنظام مخصوص .

❖❖❖❖❖

١٠٨ - ﴿ **المادة الثامنة بعد المائة** ﴾ تأسيس أصول ادارة الولايـات على قـاعدة توسيع دائرة المأذونية وتفريق الوظائف وتعين درجاتها بنظام مخصوص .

١٠٩ - ﴿ **المادة التاسعة بعد المائة** ﴾ توسع بقانون مخصـوص صـورة انتخـاب أعضاء مجالس الادارة فى مراكز الولايات والألوية والقضاوات وانتخاب أعضاء المجلـس العمومى الذى يجتمع مرة واحدة فى السنة فى مركز كل ولاية على حدتها .

١١٠ - ﴿ **المادة العاشرة بعد المائة** ﴾ تبين وظـائف أعضـاء المجلس العموميـة فى الولايات بقانون مخصوص يوضع لها ويشتمل كذلك على المذاكرات فى مطلب تنظيـم الطرق والمعابر وتشكيل صناديق الاعتبار وتسهيل الصناعة والتجارة والفلاحة وما يجرى مجراها من الأمور النافعة وعلـى مـا يتعلـق أيضـا بانتشـار المعـارف والتربيـة التـى تعـود منفعتهمـا علـى العمـوم ويحتـوى علـى مـا لهـذا المجلـس مـن الصـلاحيـة بعـرض الاشـتكا للمقامات والمواقع التى يقتضى تبليغ الشكايات إليها عندما يرى ما يخـالف أحكـام القوانين والنظامات الموضوعة فى مطلب صورة توزيع التكاليف والمرتبات الأميرية واسـتحصـالها وفى مطالب سائر المعاملات وذلك لمقصد سد الخلل واصلاحه .

١١١ - ﴿ **المادة الحادية عشرة بعد المائة** ﴾ يكون فى كل قضاء لكل ملـة علـى حدتها مجلس جماعة للنظارة على صرف أموال الوصية للموصى لهم على ما هـو محـرر فى الوصايا على وجه أن تصرف حاصلات المسقفات والمستغلات والنقود الموقوفـة إلـى المشروط لهم وإلى الخيرات والمبرات وفاقا لشرط الوقفية والتعامل القديم وللنظـارة كذلـك على صورة ادارة أموال الأيتـام توفيقـا لنظامهـا المخصـوص وهـذه المجـالس تـتركب مـن أفراد منتخبين من كل ملة على حدة على مقتضى النظامات المخصوصة التى تـترتب فـى هـذا المطلـب وعلـى هاتـه المجـالس ان تعـترف بـان مرجعهـا انمـا هـو حكوماتهـا المحليـة ومجالس الولايات العمومية .

١١٢ - ﴿ **المادة الثانية عشرة بعد المائة** ﴾ تدار الأمور البلدية فـى دار السـعادة والمحلات الخارجية عنها بواسطة مجالس الدوائر البلدية التـى تـترتب بالانتخـاب وصـورة تشكيل هذه الدوائر ووظائفها وكيفية انتخاب أعضائها سيتعين بقانون مخصوص .



﴿ فـى مـواد شـتى ﴾

١١٣ - ﴿ **المادة الثالثة عشرة بعد المائة** ﴾ إذا شهد أمارات وآثار تؤيد ظهور اختلال فى احدى جهات الممالك فيحق للحكومة السنية والحالة هذه أن تعلن موقتا ومخصوصا "الادارة العرفية" فى ذلك المحل والادارة العرفية انما هى تعطيل القوانين والنظامات الملكية موقتا والمحل الذى يوضع تحت الادارة العرفية تتعين صورة ادارته بنظام مخصوص ومن ثبت عليهم بتحقيقات ادارة الضابطة الموثوقة بأنهم أخلوا بأمنية الحكومية يكون اخراجهم من الممالك المحروسة وتبعيدهم عنها منحصرا بيد اقتدار الحضرة السلطانية .

١١٤ - ﴿ **المادة الرابعة عشرة بعد المائة** ﴾ أفراد العثمانيين مجبورون على تحصيل المرتبة الأولى من المعارف وستتعين درجات ذلك وفروعه بنظام مخصوص .

١١٥ - ﴿ **المادة الخامسة عشرة بعد المائة** ﴾ لا تعطل البتة مادة من مواد القانون الأساسى ولا تسقط من الاجراء بأى حجة أو سبب كان .

١١٦ - ﴿ **المادة السادسة عشرة بعد المائة** ﴾ إذا شهد لزوم صحيح قطعى حسب إيجاب الوقت والحال لتغيير بعض مواد القانون الأساسى وتعديلها يجوز تعديلها على الشروط الآتية وهى أولا أن يقع التكليف المتعلق بالتعديل من هيئة الوكلاء أو من هيئة الأعيان أو من هيئة المبعوثان ثانيا أن يقبل التكليف المذكور فى هيئة المبعوثان بأكثرية الثلثين ثم يصادق على قبوله من هيئة الأعيان أيضا بأكثرية الثلثين فمتى تم ذلك وتعلقت على هذا المركز الارادة السنية تصير حينئذ تلك التعديلات دستورا للعمل أما المادة الواقع التكليف على تعديلها من القانون الأساسى فتستمر مرعية الاجراء من غير أن تفقد قوتها وحكمها إلى أن تتم المذاكرات اللازمة بمعدليها وتتعلق بخصوصها الارادة السنية .

١١٧ - ﴿ **المادة السابعة عشرة بعد المائة** ﴾ اذا لزم الأمر لتفسير مادة قانونية وكانت متعلقة بالأمور العدلية فعلى محكمة التمييز تعيين معناها وإذا كانت متعلقة بالادارة الملكية يناط تعيين معناها بشورى الدولة أما إذا كانت من متعلقات هذا الأساسى فتعيين معناها منوط بهيئة الأعيان .

١١٨ – ﴿ **المادة الثامنة عشرة بعد المائة** ﴾ ان النظامات والتعامل والعادات الموجودة الآن دستورا للعمل تستمر مرعية الاجراء ما دامت لا تلغى أو تعدل بالقوانين والنظامات التى توضع فى المستقبل .

١١٩ – ﴿ **المادة التاسعة عشرة بعد المائة** ﴾ ان أحكام التعليمات الموقتة المتعلقة بالمجلس العمومى المؤرخة فى ١٠ شوال سنة ١٢٩٣ تجرى فقط لختام مدة انعقاد المجلس العمومى الذى يجتمع فى المرة الأولى ولا يكون حكمها جاريا بعد ذلك .

ثبت المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

- **ابن اياس : محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ)**
بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٢ ، القاهرة ، مطبعة بولاق ١٣١١هـ .
- **السخاوى : أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ)**
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ٣ ، القاهرة ، ١٩٣٤م .
- **المقرى : شهاب الدين أبو العباس التلمسانى (ت ١٠٤١هـ)**
١- أزهار الرياض فى أخبار عياض ، نشر منه ثلاثة أجزاء مصطفى السقا وآخرين (القاهرة ١٩٣٩م)
٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة ، وتحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ١٣٨٨هـ .
- **مؤلف مجهول :** وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة - ترجمة محمد عبد الله الشرقاوى، القاهرة ، دار الهداية .

ثانيا : المراجع العربية :

- **إبراهيم طرخان :** مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ١٣٨٢-١٥١٧ ، القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٦٠.
- **أحمد مختار العبادى :** دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الأسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، د . ت.
- **برنارد لويس :** استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية - ترجمة سيد رضوان على ، جدة ١٤٠٢هـ .
- **ستانلى لين بول :** الدول الإسلامية - القسم الأول - ترجمة محمد صبرى فرزات - د . ت
- **سيد رضوان على :** السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامى فى أوربا الشرقية ، جدة ١٤٠٢هـ .
- **عبد العزيز الشناوى :** الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠ .

- عبد العزيز نوار : الشعوب الإسلامية ، بيروت ١٩٧٣ .
- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامى ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٩ .
- محمد خليل بيهم : فلسفة الحكم العثمانى جـ٢ ، بيروت ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م .
- محمد عبد الله عنان :
١- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٣٥٠هـ .
٢- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين جـ٤ ، القاهرة ، مطبعة مصر .
- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٩٧٧م .
- محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى جـ١ ، القاهرة ، مكتبة الآداب ١٣٦٦هـ .
- محمود الشاذلى : المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة وهبه ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
- محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية فى الشرق الآسيوى .
- مؤلف مجهول : وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة - ترجمة محمد عبد الله الشرقاوى، القاهرة ، دار الهداية .
- هاملتون جب وهاروند بوون : المجتمع الإسلامى والغرب - ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى وأحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، دار المعارف .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

1 - Irving , W : Legends of the conquest of Spain .
2- Pres Cott , William , H : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic , London 1895 .

رابعا : الدوريات :

- المجلة التاريخية العربية : المجلدان ٢٥ ، ٢٦ .
- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر جـ١ ، مايو ١٩٥٤ .
- المجلة المغربية ، تونس ، العدد الثالث ، يناير ١٩٧٥ والعدد ٢٥-٢٦ يونيو ١٩٨٢.
- الهلال : من أكتوبر ١٩٠٨ إلى يوليو ١٩٠٩ .

فهرست

الصفحة